

الإمام
محمد أبو زهرة

محاضرات في
النصرانية

تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى
وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وقرصهم



دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

محاضرات في

النصرانية

تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى
وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

١١ شارع جواد حسنى - القاهرة ص.ب ١٣٠

تليفون : ٣٩٢٥٥٢٣ - ٢٦١٩٠٤٩

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

افتتاحية الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذى بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لاتجزى نفس عن شيئا ، والصلاة والسلام على النبى الامى محمد ﷺ نبي الرحمة الذى بعث على فترة من الرسل، بعد أن ضلت الأفهام، وحرقت الحقائق وسيطرت الأوهام ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين العالمين .

أما بعد .. فهذه محاضراتى فى النصرانية أعيد طبعتها ، بعد أن ألح الكثيرون فى طلب الإعادة ، إذ تعذر على مريدى قراءتها الحصول عليها، حتى أنها عندما قررت دراستها على طلبة معهد الدراسات الإسلامية لم يجد الدارسون ما يراجعون فيه، فلم يكن بد من أن يعيد المعهد طبعتها ليعين الدارسين ، ولينشر تلك الحقائق، من غير تهجم على متدين، ولا مضايقة لغير مسلم، لأن البحث الذى يتبع فيه المنهاج العلمى السليم ، لا يصح أن تضيق به الصدور ، ولا أن تنزوى عنه العقول . وإذا كانت فيه ثغرات يرأبها النقد المنطقى المستقيم، ويعالجها البحث العلمى القويم من غير عوج فى القول، ولا التواء فى القصد .

لقد كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذى يجمع الحقائق ، ويعرضها، وقد تماسك بعضها ببعض، ليتكون من ذلك مجموعة علمية تهدى ولا تضل، وما كنا نجهد التاريخ لتسييره، ولكننا خضعنا له، وهو الذى كان يسيرنا .. وكنا فى ذلك كالقاضى العادل خضع للبيانات التى تكون بين يديه، وهى التى تحكم فى الحكم الذى نسجله . لا نغير ولا نبدل ، ولا ننحرف بها عن النتائج التى تؤدى إليها مقدماتها . فنسير حيث يسير بنا الدليل من غير انحراف ولا تحريف .

وما كانت البيانات التى بين أيدينا من مصادر إسلامية، أو من أعداء المسيحية. بل كانت من كتاب المسيحيين أنفسهم التى سجلوها فى تاريخها، كتبها المتقدمون، ورددها المتأخرون، فهى شهادات من أهلها استنتقناها، فنطقت، واستهدينها، فهدت، واسترشدنا بها، وما ضنت .

وإذا كان من إخواننا وعشرائنا من تملل من محاضراتنا، أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به، فإننا - علم الله - ما قصدنا بكلامنا إخراجاً ولا إيلاً، إنما أمانة العلم هي التي جعلتنا لا نقدم لتلاميذنا الذين نلقاهم، والذين لا نلقاهم بالخطاب، بل لا نلقاهم بالكتاب، إلا ما نعتقد أنه الحق الناصع، وقد وجه إلينا نقد من بعض المخلصين من إخواننا المسيحيين في مقالات متتابعة نشرتها إحدى المجلات المسيحية، فما ضاقت صدورنا، بل ذهبنا إلى الناقد في داره، وطلبنا إليه أن يطلعنا على كل الأعداد التي تشتمل على نقد لنا، لنصح خطأ وقعنا فيه، أو لنبدل حكماً ما أنصفنا فيه، عملاً بقوله تعالى: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون» .

وإننا لنحسب أنه من بين إخواننا أقباط مصر من ظلموا، فما كان لنا إلا أن نتقبل النقد بقبول حسن، ونتبعه في كل ما وجه إلينا مستطيين ذلك، حتى ما كان منه تهجم علينا. فإن المخلص يستمع، ولو كان في كلام مخالفه هجوم، أو تهجم بغير الحق .

وما وجدنا في النقد ما يغير حكماً، ولقد أرسل إلينا بعض أبنائنا المسيحيين رسائل نقد قدرناها؛ فقرأناها، وكان كتابها يخرجون عن حد النقد أو الدفاع إلى ما لا يحسن من قول، فما ضاقت صدورنا، وحاولنا أن ننتفع منها، ولكننا ما وجدنا فيها أيضاً ما يبرر لنا تغيير حكم حكمنا به، وإلى هؤلاء وأولئك نعتذر .

ولا يصح أن يتبرم أحد من إخواننا وأبنائنا من كلام نسوقه لطلابنا، معتقدين أنه الحق الذي لا ريب فيه، فلو كان أهل كل دين تضيق صدورهم بالبحث والدرس، لكان حقاً علينا معشر المشتغلين بالدراسات الإسلامية أن تذهب نفوسنا حسرات مما يكتبه بعض علماء أوروبا عن الإسلام، يفترون على حقائقه ولا يدرسونه دراسة موضوعية، بل يدرسونه دراسة ذاتية محرفين الكلم عن مواضعه، ومع ذلك ندرس كلامهم، ونضع الصواب منه في موضعه، ونضع الباطل في مكان سحيق، نأخذهم إلى المنطق ولا ننحرف معهم عن قصد السبيل .

وأخيراً نقول لإخواننا : إننا نؤمن بالمسيح عليه السلام؛ ونؤمن بمحمد ﷺ وسائر
النبين «قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون
من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون» .

محمد أبو زهرة

٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ

١٩ من مارس سنة ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثانية

الحمد لله الذى خلق فقدر، وخلق آدم من طين ، وعيسى بن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين ، فيثبت أن الخلق بالإرادة لا بالعلية، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .
أما بعد ، فقد جاء فى صحيح البخارى عن النبي ﷺ أنه قال :

ثلاثة لهم أجران : «رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» .

ويقبس من هذا الروح السمع كتبنا كتاب محاضرات فى النصرانية، نرجو به مع إحقاق الحق الهداية، لانهاجم اعتقاديا، ولانبطل عقيدة، بل ننير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلكها من يريد الرشاد، ومن يرجو السداد، ولكننا فى عصر فهم الناس فيه الدين منزعا جنسيا، ولم يفهموه حقا اعتقاديا، ولا تهذيباً نفسياً، ولا خلاصاً روحياً، فكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية إلى القلوب، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

وقد كان الناس فى الماضى يوجد من بينهم من يقول « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» أما الآن فالناس جميعاً غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنسا، والاستمسك به من القومية أو ما يشابهها، فيكون العار على من خالف، وإن كانوا يعلمون أن فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية فى التدين ظهر نقد لكتابى هذا من بعض بنى وطنى غير المسلمين، وكنت (علم الله) مستريحا لظهوره، فجمعت النقد، وشكرت الناقد، وتغاضيت عن عبارات نالنى بها، لأنها من فلتات القلم، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفاً حرفاً، لأصحح به خطأ جرى فى الكتاب، أو سوء تفسير فسرناه، أو تخريجاً بعيداً عن المعنى خرجناه .

ولكنى وجدت النقد خالياً من ذلك فى جملته، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب، يثير

اعتبار الدين جنسا، ويدفعه التعصب الشديد، ويحاول توهين المكتوب، حتى أنه في سبيل ذلك يعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضا، والمعلق على شرط متضاربا، لأن صدر الكلام غير الوصف، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وإن كان في النقد ما يفيد أنه أثبت أن بعض إخواننا تألم من عبارات جاءت في كتابنا . فغيرناها إن لم يكن في التغيير ما يمس الجوهر، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن إعادة طبع الكتاب ، مع الإلحاف من الكثيرين وبعضهم من إخواننا المسيحيين، وأحجمنا عن ذلك حوالى ست سنوات، ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر، وأن عند إخواننا من سعة الصدر ما يتسع لذلك . وخصوصاً أن الكتاب معروف في أمريكا وأوروبا والهند . فقد ترجم إلى الإنجليزية . واخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصاً كاملاً، وترجم إلى الفرنسية والأردية .

فإذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلاً للكثير العلمى وإن خالفوها - فإنه من نقص الحرية الفكرية فى مصر أن يضيق صدر بعض أبنائها حرجاً بإعادة طبع كتاب سجله المسيحيون فى لغاتهم .

ولقد أقدمت على إعادة طبع الكتاب بعد طول الإحجام ، راجياً من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

محمد أبو زهرة

٩ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨ هـ

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩ م

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى بن مريم من النبيين الصديقين، ومن عباد الله الصالحين وأولى العزم من الرسل.

أما بعد .. فقد عهد إلى تدرّيس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين فألقيت محاضرات في النصرانية ، وهذه خلاصتها، وتلك لبابها، ولقد عنيت ببيانها في أوارها المختلفة متبعاً في بيان المسيحية الحاضرة سلسلة أسنادها المتصلة . فكان أول السلسلة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهي بعصرنا الحاضر، هذا مبدأ السند وهذا منتهاه، فالسند إذن ينقطع بين المسيح عليه السلام، والمجمع الأول من المجمع المقدسة، وإن انقطاع السند في هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذي لحق النصارى فيها، حتى كانوا يستخفون ويتعبدون في السر . فلا يعلنون دينهم الذي ارتضوا، ويفرون به فراراً إن كشف أمرهم، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حد السيف أو نار العذاب، وقد اعترف بقطع السند مجادلهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع .

وإنما إزاء ذلك العجز أو عدم توافر أسباب العلم ابتدأنا بحثنا في دينهم بكتبهم التي ألزم المسيحيون بها بعد قرار المجمع بالإلزام ، ثم تتبعنا في البحث سير المجمع . نسير في مسارها، ونتجه في اتجاهاتها، ولكننا لا نكتفي بدراسة قرارات مجمع من المجمع، بل ندرس البواعث التي بعثت إلى انعقاده، ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذي سبقه، والذي جاء المجمع لحسمه، ثم انتهى إلى تشعييه وتوسيع زاويته .

وإن عنايتنا بتفصيل البواعث التي أدت إلى انعقاد المجمع الأول ، وبيان قراراته، وكيف تلقى جمهور المسيحيين، وخاصة رجال الدين، تلك القرارات، قد أزالنا الستار عما أكتنه غياهب التاريخ في الفترة التي كانت بين المسيح وهذا المجمع، بل إن تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخي لنصل إلى ضوء إليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح في عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازناً فيها بين المسيحية الحاضرة وفلسفة الرومان واليونان في تلك الفترة، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القارئ أو نسبقه إلى الاستنباط، بل ألقينا إليه بالمقدمات، وتركنا له استخراج نتائجها، ليشاركنا فيما وصلنا إليه باقتناعه، ولكيلا نملا عقله، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة إلى بيان العقيدة، فجلينا أدوارها، وبيناً ما قام حولها من مناقشات وخلافات . وبيناً كل فرقة ومنبعثها، والمجمع الذي انبعثت من بعده . وما أحصينا فرقهم عدا، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلاً، بل عينا بالفرق الكبرى، وعينا بتفصيل العقيدة دون سواها .

وعلم الله أنى لبست رداء الباحث المنصف، ونظرت بالنظر غير المتحيز، وتخلت عن كل شئ سواه، لأصل إلى الحق وصول المجتهد الحر، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره؛ والمأخوذ بسابق اعتقاده، ولكنى انتهيت كما ابتدأت، مؤمناً بالله الواحد الأحد، الذى ليس له والد ولا ولد .

وإنى لأهدى كتابى هذا إلى كل مسيحى طالب للحقيقة يسير فى مسالكها لا أبغى به غلباً فى جدال، ولا سبقاً فى نزال، ولكن أبغى به الحق المجرى «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» .

محمد أبو زهرة

تمهيد

١ - عسير على المرء أن يكتب في رأى يخالف رأيه، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأى، كما يجول بخاطر صاحبه، وينبعث فى نفسه، فيبين دوافعه وغاياته، وإذا كان ذلك واضحا فى رأى مخالف يرتأى، فكيف تكون الحال إذا كانت المخالفة فى عقيدة تعتنق، وتتغلغل فى أعماق النفس، وتستكن فى أطوائها !! إن الطريق حينئذ يكون أوعث، ومسالكه أضيّق، لذلك كان الطريق غير معبد أمام الباحث الذى يريد أن يكتب فى النصرانية كما تجول بخاطر معتنقيها، ويفرض من نفسه ناظرا غير متحيز، يبين العقيدة، كما هى فى نفس أصحابها، لا كما ينبغى أن تكون، أو كما يعتقد هو، لأن الباحث يخلع نفسه مما تعتنق وتؤمن به . ويجردها تجردا تاما مما قد صار منها بمنزلة الملكات، وخالط الإحساس والمشاعر واستولى على كل مسالك الآراء إليها . وتصوير المسيحية كما يعتقد أصحابها ليس فقط عسيرا على الكاتب غير المسيحي، بل إنه عسير على الكتاب المسيحيين أنفسهم، يستوى فى ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين، ولذلك يستعينون فى تصويرها، وإدائها إلى العقول بضرب الأمثال، والتشبيهات الكثيرة لتأنيس غريبها بالقرب المألوف، والمشاهد المحسوس، ولإدخالها فى العقل من الباب الذى يآلفه ويعرفه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

٢ - ولكن البحث العلمى يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية إن أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجردا من نزعاته السابقة على الدراسة، غير جاعل لعقيدته سلطانا على حكمه، حتى لا تسيره فى دراسته، وتتحكم فى اتجاهاته، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم، والتزيد ليس من شيمة العلماء، أو يدفعه لأن يتناول كلامهم بغير ما يريدون، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هى فى ذاتها، بل يدركها كما انعكست فى نفسه، وكما رسمت على قلبه، وقد يباعد ذلك الأمر فى ذاته .

ولذلك سنحاول - داعين الله مبتهلين إليه أن يلهمنا التوفيق - دراسة المسيحية، مجردين من أنفسنا ناظرا غير متحيز عليها ، لنصورها كما هى، وكما يعتقد أهلها، ولنتمكن من أن نكتبها بروح الإنصاف، ولقد نضطر فى سبيل ذلك الإنصاف أن ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأى تصرف، حتى ما

يتعلق بالإعراب وأساليب البيان، لكيلا يدفعا التصرف في التعبير إلى تغيير الفكرة، أو تحريف القول عن مواضعه . وسنجهتهد ما استطعنا في تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال، وإن لم نجد بدا من ذلك .

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم، وتعرف غاياته ومراميه لا نترك النقد العلمى النزيه، الذى يستمد قوانينه من بدائه العقول وأحكام المنطق ، وخصوصا ما يتعلق بكتبهم، لأنه إذا كان الإنصاف قد طالبنا بالأنتزید على ما عندهم، أو نحرفه عن مراده ومرماه، فالإنصاف أيضا يطالبنا بالأ نهمل العقل، وإلا خرج بحثنا عن معناه العلمى التاريخى، وصار بحثا لاهوتيا صرفا، وذلك ما لا نريد، فلا يصح أن يدفعا حرصنا على إنصافهم إلى ظلم العلم والحق والعقل .

المسيحية : كما جاء بها المسيح عليه السلام

المسيحية فى القرآن :

٣ - قبل أن نخوض فى المسيحية كما هى عند المسيحيين نتكلم فى المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام، وإننا إذا تصدينا للمسيحية التى جاء بها المسيح نجد التاريخ لايسعفنا بها، إذ بعد العهد ، واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التى نزلت بالمسيحيين، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والإثبات عملها، حتى اختلط الحابل بالنابل. وصار من العسير أن نميز الطيب من الخبيث، والحق من الباطل، والصحيح من غير الصحيح، وإننا معشر المسلمين لانعرف مصدرا صحيحا جديرا بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، فهما المصدران المعتمدان للمسلم فى هذا. وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين، ولا على أنه هو المعتبر عندهم، ولكن نكتبه، ليتسق البحث، ولنتم السلسلة.

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى التوحيد الكامل، التوحيد بكل شعبه، التوحيد فى العبادة، فلا يعبد إلا الله، والتوحيد فى التكوين، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له، والتوحيد فى الذات والصفات فليست ذاته بمركبة، وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى . فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى مادعا إلا إلى التوحيد الكامل ، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه : «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى، ولا أعلم ما فى نفسك، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد» .

فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد، فغير التوحيد إذن دخل النصرانية من بعده، وما كان عيسى إلا رسولا لله رب العالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح كتاب هو الإنجيل، وهو مصدق للتوراة، ومحيى

شريعته، ومؤيد للصحيح من أحكامها، وهو مبشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد، وهو مشتمل على هدى ونور، وهو عظة للمتقين، وأنه كان على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولذلك قال الله تعالى: «وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» .

دعوة المسيح :

٤ - ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لا توسط بين الخالق والمخلوق، ولا توسط بين العابد والمعبود، فالأخبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس، بل كل مسيحي يتصل بالله فى عبادته بنفسه، من غير حاجة إلى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما، وليس شخص - مهما تكن منزلته أو قداسته أو تقواه - وسيطا بين العبد والرب فى عبادته، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب، وما أثر عنه من وصايا، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام - كما ورد فى بعض الآثار، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين - تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفى لأن تقوم عليه الحياة، وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبني الإنسان فى الدنيا، إذ الدنيا ليست إلا طريقا غايته الآخرة، وابتداء نهايته تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام إلى الزهادة فى الدنيا، والابتعاد عن أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب على ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية، وكان منهم من يفهم أن الحياة هى غاية بنى الإنسان، بل إن التوراة التى بأيديهم اليوم خلت من ذكر اليوم الآخر، ونعيمه أو جحيمه، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذى أوعده به العاصين، وثوابه الذى وعد به المتقين، إنما زمانه فى الدنيا لا فى الآخرة، وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسى فى كتابه حياة المسيح : «الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية فى نفس هذا العالم، فإنه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون فى ذاكرة الله والناس إلى الأبد، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله، ويكونون معروفين عند الله، أما الأشرار فلا، هذا كان جزاء أولئك ، وعقاب هؤلاء. ويزيد الفريسيون على ذلك أن الصالحين ينشرون

فى هذه الأرض يوم القيامة ليشتركوا فى ملك المسيح الذى يأتى لينقذ الناس، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته، وهكذا يتنعمون بانتصارهم، وانخزال الأشرار أعدائهم، وعلى ذلك تكون مملكتهم فى هذا العالم نفسه» ا هـ . فجاء المسيح عليه السلام مبشراً بالحياة الآخرة، وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكروها بفعله، فكانوا فى ذلك الإنكار سواء .

مريم والمسيح فى القرآن الكريم :

٥ - وإذا كانت شخصية المسيح هى اللب فى المسيحية الحاضرة، وأساس الاعتقاد فيها، وجب أن نبينها كما جاءت فى القرآن، كما سنبينها كما جاءت فى المسيحية، ليستطيع القارئ أن يوازن بين الشخصيتين، ويعرف أيهما أقرب إلى التصور، والعقل يتقبلها بقبول حسن، ولنبدأ بأمه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران . فيقول تعالت كلماته : «إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم* فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .»

هذه هى الأحوال التى اكتتفت الحمل بالبتول مريم، وولادتها، وتربيتها، ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلاها، وهى جنين فى بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفها الله لأمر جليل خطير، فأما وهى حامل بها نذرت أن يكون ما فى بطنها محرراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدائته، والقيام بشئونه، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها، فلما وضعت، وكان نذرها على فرض الذكورة، كما يبدو من إشارات النصوص القرآنية، جددت العزم على الوفاء بالنذر، وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر،

فكان ذلك الإصرارعبادة أخرى، إذ وجدت في النفس داعيات التردد، والرجوع والتحلل من الوفاء، فكان كفها هذه الداعيات والقضاء عليها عبادة أخرى، ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة، وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبي من أنبياء الله الصديقين الصالحين، فكفلها زكريا، ووجهها إلى العبادة الصحيحة، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والإثم، وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها أخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولا تحتسب، ومن غير جهد ولا عنت، حتى أثار ذلك عجب نبي الله كافلها فكان «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» .

٦ - ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التي تكونت في ظلها بريئة من دنس الرذيلة - لايجد الشيطان سبيلا أو منفذا ينفذ إلى النفس منها - تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاه الله تعالى له دون العالمين، ولذا خاطبتها الملائكة وهي الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» . ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أما لمن يولد من غير نطفة آدمية . وكان ذلك لكي تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما حف بها من أحوال القرائن التي تقطع ريب المرتاب، وألسنة كل أفك، وتثير السبيل أمام المؤمنين، إذ أن ولادته من غير أب، من أم كانت حياتها للنسك والعبادة، والعكوف على التقوى، وتحت ظل نبي من أنبياء الله تعالى لم تزن بريئة قط - يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى في هذا الكون، ولا يجعل شيئاً يقف أمام مرید الهداية من تظنن بالأم أوريبة فيها، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنقى هذه الربيبة، وتبعدها عن موطن الشبهة .

الحمل بالمسيح وولادته :

٧ - حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام، وهو الأمر الذي اجتباها الله لأجله، ولقد فوجئت به، إذ لم تكن به عليمه . فبينما هي قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أرسل الله إليها ملكاً تمثل لها بشراً سوياً «قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً *

قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب، ثم ولدتة . ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل . فلم يرد فى الصحاح آثار تبين تلك المدة، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا إذن إلا أن نفرض أن مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين الناس . وهى مدة تسعة أشهر هلالية .

ولما ولدتة وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم ، سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها، ومن لا يعرف، لأنها فاجأتهم بأمر غريب، وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل، فكانت المفاجأة داعية الاتهام، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر، وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم ، وقرينته أمر عادى لامجال للريب فيه عادة، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة . فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله، ويأتى على قواعده ويفاجئهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتية الريب، ليعيد إلى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها، ولذلك نطق الغلام، وهو قريب عهد بالولادة ، أشارت إليه «قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» .

٨ - نطق السيد المسيح فى المهد، ليكون كلامه إعلاماً صريحاً ببراءة أمه، وأنه لم يكن إلا عبداً لله ، ولد من غير أب . ويروى ابن كثير : «عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية، وذلك قوله تعالى: «وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً»، ولم يذكر فى الآثار الصحاح عن النبى عليه الصلاة والسلام حال عيسى عليه السلام فى مرباه ونشأته، وكيف كان منه

مما يكون إرهاباً بنبوته، فليس لنا إلا أن نقول أنه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة فى إسرائيل، ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه وهو غلام، ما يدل على روحانيته، وما يدعو إليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة، وغلبت عليهم نزعاتهم، والاتجاه إليها .

الحكمة فى كون المسيح ولد من غير أب :

٩ - لابد من أن نشير هنا قبل أن نتقل إلى بعثته عليه السلام إلى السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب . فإنه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته، وقد أشار إليها سبحانه فى قوله تعالت كلماته : «ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً» .

وإننا نلتمس تلك الآية الدالة فى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان : أحدهما : أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه سبحانه لا يتقيد فى تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى أبدعه الله والذى خلقه، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله، لأنه خالقها، وهو مبدعها ومريدها، فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته، كما يصدر الشئ عن علته، والمسبب عن مسببه، من غير أن يكون للعللة إرادة فى معلولها، بل كانت بفعله سبحانه وإرادته التى لا يقيدها شئ مهما يكن شأنه، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية. بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفى عصر سادته نوع من الفلسفة، أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول، كالعللة من معلولها، فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كله بإرادته، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول : «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً» .

الأمر الثانى : إن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، وأنه ليس إلتك الأعضاء والعناصر التى يتكون منها، فلقد قيل عن اليهود أنهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسماً عضوياً، ولا يقرون أنه جسم وروح ، فقد قال رينان فى سبب الحقد الذى تغلغل فى النفس

اليهودية : « لو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين : أحدهما الروح ، والآخر الجسد ، وإنما تعذبت الروح في هذه الحياة لأنها تستريح في الحياة الثانية ، لسرى عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر ، بسبب ذل وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الأدبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله » .

يقرر رينان في هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان أن الإنسان جسم وروح ، ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم ، فقد جاء فيها : « لاتاكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه » ، إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم . فلما جاء عيسى من غير أب . وكان إيجاده بروح من خلق الله ، كما قال « والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » كان ذلك الإيجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم . فكان الإنسان من غير بذرة الإنسان وجرثومته . كان ذلك إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها ، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا أنه جسم لاروح فيه ، وهذه آية الله في عيسى وأمه عليهما السلام .

بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته :

١٠ - بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد في القرآن ، ولا في الآثار الصحاح بيان السن التي بعث عند بلوغها عليه السلام . ولكن ورد في بعض الآثار أنه بعث في سن الثلاثين ، وهي السن التي تذكر الأناجيل المعبرة عند النصارى أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث في هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح ، وهجر الملاذ التي استفرقت النفوس في تلك الأيام ، واستوت عليها ، ويبشر بعالم الآخرة ، ولقد أيدته الله بمعجزات ، وأن ولادته نفسها معجزة ، كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني ، فقد قال رحمه الله في ذلك : « كانت له آيات ظاهرة ، وبيانات زاهرة ، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه ، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سابق » .

ومعجزاته التي ذكرها القرآن الكريم تتلخص فى خمسة أمور، جاء ذكر أربعة منها فى سورة المائدة فى قوله تعالى : «إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس فى المهد وكهلاً، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى، وإذ تخرج الموتى بإذنى» .. إلى قوله تعالت كلماته : «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن ناكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك وارزقنا، وأنت خير الرازقين * قال الله إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات :

الأولى : أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيراً من الطين، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى . ولكن جرى الخلق على يد عيسى، وبنفخ منه عليه السلام بإذن الله تعالى .

الثانية : إحياءه عليه السلام الموتى بإذن الله جلت قدرته، والمحى فى الحقيقة هو الله العلى القدير، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته، ودليل رسالته .

الثالثة : إبرائه عليه السلام الأكمه والأبرص، وهما مرضان تعذر على العالم قديمه وحديثه العثور على دواء لهما، والتمكن من أسباب الشفاء منهما، ولكن عيسى بقدره الله شفاهما، وبرئ المريضان برقيته، فكان دليلاً قائماً على رسالته عليه السلام .

الرابعة : إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين، لتطمئن قلوبهم، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهناك خامسة ذكرت في سورة آل عمران، وهي إنباؤه عليه السلام بأمر غائبة عن حسه، ولم يعاينها، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يآكلون وما يدخرون في بيوتهم. وقد ذكر الله تعالى في قوله جل شأنه حاكياً عنه «وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» .

الحكمة من كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع :

١١ - هذه معجزات عيسى عليه السلام، وهنا يتساءل القارئ: لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع؟ يجيب عن ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية بقوله: «كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزاته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكيا، فبعث آيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعانوا ما عانوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا ممن أيدته، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعاً، ولم يتلثموا . وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن طبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى، والأبرص والمجنوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله، وهكذا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين، بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فلفظه معجزة تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرين على ذلك، ولا في الحال، ولا في الاستقبال، فلم يفعلوا، ولن يفعلوا، وما ذلك إلا أنه كلام الخالق عز وجل، والله لا يشبهه شئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ما نراه حكمة صحيحة :

١٢ - من هذا الكلام يستفاد أن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم، وإحياء الموتى، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعي، وكانوا فلاسفة في ذلك، فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون، ليكون عجزهم حجة عليهم، وعلى غيرهم ممن

هم دونهم في الطب، ولكن رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسي يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعي فيقول: «كانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم، فإن اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ، وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب لأبقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة، يعنى الهستيريا، وفيه وصف هذه العلة، وذكر دوائها ، إلا أن اليهود في فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب، وكان في اليهودية في ذلك الزمان كثيرون من المجانين، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية .

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم إذن بالطب، أو الطب الطبيعي على رأى ذلك الفيلسوف المؤرخ .

وفي الحق أن الذى نراه تعليلاً مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه، لا لأنهم أطباء، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأواء، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم، وأفعال جميعهم، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة، مصدق لما يأتى به الرسول، وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح، وبرهان قاطع على وجودها، فهذا طين مصور على شكل طير، ثم ينفخ فيه فيكون حياً، ماذا إلا أن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه، فكانت معه الحياة، وهذا ميت قد أكله البلى، وأخذت أشلائه فى التحلل ، وأوشكت أن تصير رميماً، أو صارت . يناديه المسيح عليه السلام، فإذا هو حى يجيب نداء من ناداه، وماذا إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيرَه البلى حلت فيه بذلك النداء، ففاضت عليه بالحياة، وهكذا . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته، وتناسب أخص رسالته، وهو الدعوة إلى تربية الروح، والإيمان بالبعث والنشور، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره أو تسمح لجاحد البعث والنشور أن يستمر فى جحوده. وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الإيمان

باليوم الآخر . إن لم يكن بالقول فبالعمل، فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملاً، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحون .

تلقي اليهود لدعوته :

١٣ - بعث عيسى عليه السلام بتلك البيئات، وأيد رسالته بتلك المعجزات ، وأنها باهرة تخرس الألسنة ، وتقطع الطريق على منكرى رسالته . لو كان الدليل وحده هو الذى يهدى النفوس الضالة، والقلوب الشاردة، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب، قساة القلوب، فكانت مهمته شاقة، إذ حاول هدايتهم، لأن منهم من علم الديانة رسوماً وتقاليد يتجهون إلى الأشكال والمظاهر منها دون الاتجاه إلى لبها وغايتها . حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير فى يوم السبت زاعماً أنه داخل فى عموم النهى عن العمل فيه، فإذا جاء المسيح داعياً إلى أن ينظروا إلى إصلاح القلب، بدل الأخذ بالمظاهر والأشكال فإنه لاشك يصدم هؤلاء فيما يألفون وفيما وجدوا عليه سابقهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة، واستغرقتهم، واستولت على أهوائهم ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهياكل عندهم، وقد فاتهم العمل على كسب المال من أبوابه الدنيوية - يجمعون المال من نذور الهياكل، والقرايين التى يتقرب بها الناس، ويحرصون على ذلك أشد الحرص . فكانوا يأخذون القرايين من أشد الناس حاجة وأفقرهم . فجاء المسيح وندد بهذا .

ولقد اتخذ بنو إسرائيل من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده، وزعمهم أن لهم منزلة دينية لايساميهم فيها أحد - اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى أرستقراطية دينية ! فزعموا أن لهم المكانة السامية، ولغيرهم المنزل الدون، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية، وأمنوا برسالة موسى، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، وكان الإسرائيليون يعاملون أحادها، كأنهم المنبونون . فلما جاء عيسى عليه السلام، وسوى بين بنى البشر فى دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العدا .

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية دون الناس . فجاء المسيح وجعل الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله .

مناوأة اليهود له :

١٤ - لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح . وقليل منهم من اعتنق دينه وأمن به . وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته، فلما أعيتهم الحيلة، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله - أخذوا يكيّدون له، ويوسوسون للحكام بشأته، ويحرضون الرومان عليه، ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون إلى المسائل الدينية والخلافات المذهبية بين اليهود، بل تركوا هذه الأمور لهم يسوونها فيما بينهم، واليهود يريدون أن يغفروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن. فبثوا حوله العيون يرصدونه، ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام، عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلونها للحاكم الرومانى، فلم يجدوا؛ لأن المسيح ما كان يدعو إلا إلى إصلاح الجانب النفسى الخلقى، ولم يكن قد اتجه إلى إصلاح الحكومة بعد. ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه، وانتهى الأمر إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الرومانى على أن يصدر الأمر بالقبض عليه، والحكم عليه بالإعدام صلباً .

نهاية المسيح فى الدنيا :

١٥ - وهنا نجد القرآن الكريم يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته : بل نجاه الله من أيديهم : «فما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم» ، وبعض الآثار تقول أن الله ألقى شبهه على يهوذا ، ويهوذا هنا هو يهوذا الأسخريوطى الذى تقول الأناجيل عنه أنه هو الذى دس عليه، ليرشد القابضين إليه، إذ كانوا لا يعرفونه، وقد كان أحد تلاميذه المختارين فى زعمهم .

ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة، ففيه : ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفاييل وأدرييل^(١) سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن استيقظ أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا : أنت ياسيدى معلمنا، أنسيتنا الآن ... إلخ» .

(١) يزيد إسرافيل وعزرائيل

والإنجيل المعتبرة عند المسيحيين لم تختلف فى شئ كاختلافهم فى قصة الصلب ،
فكل رواية بشأنها .

المسيح بعد نجاته :

١٦ - لم يصلب المسيح بنص القرآن، ولكن شبه على القوم ، لقوله تعالى : «وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم» وقوله تعالى : «وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه» وإذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب، فما هى حاله بعد ذلك ؟ اختلف فى هذا الشأن مفسرو القرآن، فجلهم على أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه إليه، وأخونا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل، بل رفعه الله إليه؛ وبيعض آثار قد وردت فى ذلك ، وفريق آخر من المفسرين، وهم الأقل عدداً، قالوا : إنه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه، ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وأخونا فى ذلك بظاهر قوله تعالى : «إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة». «فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد» ولكل من المختلفين وجهة هو مولياها، ولا نريد أن ندخل فى تفصيل حجج الفريقين وترجيح إحداها على الأخرى؛ فلذلك موضع ليس هذا مقامه .

١٧ - ويزعم بعض الناس أن المسيح عليه السلام قد هاجر إلى الهند، وأنه عاش فيها حتى استوفى أجله، ومات هناك، وله قبر، ولقد جاء فى تفسير المنار ما نصه : «وجد فى بلدة سرى نكرا مقبرة فيها مقام عظيم يقال أنه مقام نبي جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ، ويسمى يوز أسف ويقال أن اسمه الأصلى عيسى، وأنه نبي من بنى إسرائيل، وأنه ابن ملك، وأن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم، وتذكر فى كتبهم، وأن دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا أن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله» هذا ما جاء فى تفسير المنار، وقد ذكر أن نقله عن غلام أحمد القديانى الهندى وهو راو يشك فى صدقه .

هذا ، وأن القرآن الكريم لم يبين ماذا كان من عيسى بين صلب الشبيه ووفاة عيسى أو رفعه على الخلاف فى ذلك، ولا إلى أين ذهب، وليس عندنا مصدر صحيح يعتمد عليه، فلنترك المسألة، ونكتف باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصلب ، ولكن شبه لهم .

موازنة بين المسيح فى القرآن الكريم والمسيح فى المسيحية الحاضرة :

١٨ - «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون» .

وتلك ديانتة كما جاء بها، ودعا إليها، فما الذى عرض لها من بعده، وما الذى أدخل عليها بعد أن رفع إلى ربه ؟ . وأول ما أدخل على هذه الديانة هو ما يتعلق بشخص المسيح عليه السلام، ولنسارع فى بيان اعتقادهم فى المسيح بإيجاز، ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التى مرت بتاريخ المسيحيين، محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التى تتعلق بالمسيح، ثم بقوانينهم الكنسية .

يعتقد المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة، فأكل منها بإغواء إبليس، فاستحق هو وذريته العذاب، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسّد كلمته، وهى ابنه الأزلى تجسداً ظاهراً، ورضى بموته على الصليب، وهو غير مستحق لذلك، لكى يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معاً، وكان ذلك الابن، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله إليها ملاكه جبريل ، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها، وأن الروح القدس يحل فيها، فتلد الكلمة الأزلية، وتصير والدة الإله . وقد ولد بيت لحم، إذ كان قد ذهب إليها يوسف النجار خطيب مريم الذى لم يتركها بعد أن حملت، لرؤيا رآها فى منامه تمنعه من ذلك، لأن بيت لحم بلده، فذهب إليها ومعه مريم ليقيده اسمه فى الإحصاء العام الذى أمر به الرومان .

ولد المسيح فى خان قد نزل فيه يوسف ومريم، ولفقرهما لم يجدا مأوى لهما فى الخان سوى مكان الدواب، ولقد قمطته وأضجته فى مذود البقر .

وفى ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم، فرأوا بغة جمهوراً من الملائكة مسبحين قائلين «المجد لله فى الأعلى،

وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة» فترك الرعاة القطعان، وذهبوا إلى المكان الذى دلهم عليه الملائكة، فرأوا الطفل فى المنود، وعادوا وهم يمجدون الله، ويسبحونه على كل ما سمعوا ورأوا . كما قيل لهم .

وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته، وسمى يسوع . أى المخلص فى زعمهم كما سماه الملك عند التبشير به .

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم، قالوا إنه لاح لهم فى السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من علمهم وما عندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد هو ملك اليهود المنبأ به فعزموا على الرحيل إليه، ليسجدوا له، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر . وكانوا فى مسيرهم يسيرون والنجم الذى رأوه يهديهم إلى الطريق هم ومن معهم من خدم . حتى جاءوا إلى المدينة، وسألوا عن مكان الملك، فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم إليه، واستطلع طلعم، وتعرف أمرهم فقصوا عليه قصصهم وما ابتعثهم إلى الضرب فى الأرض، والمجئ إلى أورشليم، فسرى إلى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد، ثم دعا إليه كهنة اليهود وكتبتهم، وسألهم أين يولد المسيح . فقالوا : فى بيت لحم اليهودية حسب النبوءات، فقال للمجوس : اذهبوا إلى بيت لحم، ومتى وجدتم الصبى فأخبرونى لأسجد له، قال ذلك، وأخفى فى نفسه أمراً لم يبده، فذهبوا والنجم يتقدمهم، ووجدوا الصبى يسوع وأمه، فسجدوا له، وقدموا هداياهم، وفى هذا الوقت ظهر ملاك الرب فى الحلم ليوسف، وقال له: قم وخذ الصبى وأمه، واهرب إلى مصر، لأن هيرودس يطلب الصبى ليقتله، ففعل كما أمر، وخرجت الأسرة المقدسة إلى مصر، وسافر المجوس إلى بلادهم من غير أن يرجوا على هيرودس؛ لأنهم نهوا عن العودة إليه بوحى أوحى إليهم فى حلم، فأخذهم الغيظ، واندفع فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التى تجاوره ممن لا تتجاوز سنه سنتين، زاعماً أن يسوع لابد أن يكون أحدهم .

رحلت الأسرة المقدسة إلى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق، كما يعتقدون، وبعد أن أقاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل، لأن ملك الرب ظهر ليوسف فى الحلم، وقال له : قم وخذ الصبى وأمه وعد إلى اليهود، لأن هيرودس الذى كان يطلب نفس الصبى قد

مات، فقاموا واتجهوا إلى فلسطين ومروا في طريقهم بالمطرية، واستظلوا بشجرة هناك تسمى شجرة العذراء، وفي بعض الآثار أنه لما دخلت مريم وابنها ويوسف أرض مصر، انكفأت أصنامها وتحطمت، وكان ذلك إتماماً لنبوة أشعيا القائل: «هوذا الرب راكب على سحابة وقادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من جهة . وينوب قلب مصر داخلها» سفر أشعيا - ١٩:١ .

ولما عادوا إلى فلسطين أقاموا في الناصرة . ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمداً في نهر الأردن، عمده يوحنا المعمدان، ثم صام أربعين يوماً، ولما شرع في التبشير ظهر له الشيطان يجربه . وقال له : أعطيك هذه الدنيا إن خررت وسجدت لى، فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان . ثم تركه إبليس ، وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه، وبعد هذه التجربة صار في طريق التبشير . فلزمه حواريوه الاثنا عشر، واختار معهم سبعين أرسلهم مثنى مثنى إلى قرى اليهود والجيل للتبشير، ثم أقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتى بالمعجزات المثبتة لألوهيته في زعمهم، يشفى المريض ويفتح أعين العميان، ويخرج الأرواح النجسة . . وينهر الرياح إذا ثارت، والبحر إذا اضطخب بالأذى، وقذف بالزبد، فيهدأ .

ولما رأى اليهود أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم تشاوروا لى يصطادوه، وتأمروا عليه، وشكوه ظلماً، وكذبوا عليه، ثم أمسكوا به وأسلموه إلى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان . فقاضى عليه بالموت صلباً ، فصلب في زعمهم ودفن . وبعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام قام في الفصح، ومكث أربعين يوماً ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانتهم، إذ قال لهم : «أذهبوا إلى العالم، وكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها، وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس» .

المسيحية بعد المسيح

ما نزل بالمسيحيين من اضطهاد :

١٩ - هذا هو المسيح كما جاء فى كتبهم وتعاليمهم، ولانريد أن نخوض فى بيان خلافاتهم حوله، ولا بيان اختلافهم فى تفسير هذه العقيدة، ولا فى تفصيل مجملها قبل أن نبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسيح، ولكننا سارعنا إلى بيان اعتقادهم الذى استقروا عليه فى المسيح ليوازن القارئ بين ما جاء فى القرآن الكريم، وما جاء فى أناجيلهم وتعاليمهم .

ونعود بعد ذلك إلى ما يوجب البحث العلمى، وهو تتبع العقيدة فى نموها، وفى استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها، وتمهيدا لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده، لكى يستبين القارئ مقدار قوة السند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث، وليعرف الفلسفة التى عاصرت المسيحية ومقدار اتصالهما .

اتفقت المصادر شرقية وغربية، دينية وغير دينية : على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلأيا وكوارث، جعلتهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحيانا ويصممون للمضطهدين مستشهدين أحيانا أخرى، وهم فى كلتا الحالتين لاشوكة لهم ولاقوة تحميهم، وتحمى ديانتهم وكتبهم، وأنه فى وسط هذه الاضطهادات يذكررون أنه نونت أناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها، ودونت رسائلهم !!

وأول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان فى عهد المسيح، وانتهى بالخاتمة التى بينهاها . ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء . فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذى عاصر المسيح ، كانا شديدين على تلاميذه، وقتلا منهم قتلا ذريعا، وفى زمن ثانيهما دُون متى إنجيله بالعبرية ، وترجمه يوحنا صاحب الإنجيل إلى اليونانية، على رواية ابن البطريق كما سنتبين، ولم يكن الاضطهاد فى عهد هذين القيصرين من الرومان فقط، بل كان من اليهود أيضا، وأذاهم أمكن، وتنقيبهم عن العقيدة أدخل. لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشرهم، فهم بداخلهم أعرف .

وأشد ما نزل من أذى كان فى عهد نيرون (سنة ٦٤م) وتراجان سنة ١٠٦م وديسيون (٢٤٩ - ٢٥١م) ودقلديانوس (سنة ٢٨٠م) ، فنيرون أهاج الشر عليهم، وأنزل البلاء والعذاب بهم، واتهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما، فأخذهم بجريرتها . وكانت السنوات

الأربع الأخيرة عذابا أليما لهم . فقد تقفن هو وأشياعه فى هذا العذاب، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم فى جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب ففتهشهم، وصلبوا بعضهم، وألبسوا بعضهم ثيابا مطلية بالقار، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها، وكان هو نفسه يسير فى ضوء تلك المشاعل الإنسانية .

وفى عصر نيرون هذا دَوّنَ الإنجيل مرقس سنة ٦١ على رواية، وكان بمصر وقد كتبه عنه بطرس وهو برومة، وكتب أيضا لوقا إنجيله فى عهد هذا القيصر، وفى ابتداء هذا الإنجيل ينص على أنه يرأسل به تاوفيلس، ليؤكد له صحة الكلام، وتاوفيلس هذا رجل من عظماء الروم وأشرفهم، وفى عصر هذا القيصر أو بعده دَوّنَ يوحنا إنجيله .

وفى عهد تراجان نزلت بهم ألام، لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة فى الخفاء وهربا من الاضطهاد، وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك، ولأنهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر .

جاء فى كتاب تاريخ الحضارة «لقد كتب بلين - وكان واليا فى آسيا - إلى الإمبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة، التى كان يُعامل بها المسيحيون، قال : «جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية، وهو أنى أسألهم إذا كانوا مسيحيين فإذا أقرروا أعيد عليهم السؤال ثانيا وثالثا مهددا بالقتل، فإن أصروا أنفذت عقوبة الإعدام فيهم، مقتنعا بأن غلظهم الشنيع، وعنادهم الشديد، يستحقان هذه العقوبة. وقد وجهت التهمة إلى كثير بكتب لم تنذيل بأسماء أصحابها، فأنكروا أنهم نصارى، وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأرباب، بل إنهم شتموا المسيح، ويقال أن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى، ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم فى أنهم اجتمعوا فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على أنه رب ، وعلى إنشاد الأناشيد إكراما له ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم، بل على ألا يسرقوا ، ولا يقتلوا، ولا يزنوا، وأن يوفوا بعهدهم، ورأيت من الضرورى لمعرفة الحقيقة أن أعذب امرأتين ذكرت أنهما خادمتا الكنيسة بيد أنى لم أقف على شئ سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها» .

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى فى عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب، وتنقيب على القلب وخبيثة النفس .

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان ، بل استمر؛ وإن أخذت الرأفة بعض القياصرة، خلف من بعده خلف ينزلون عذابا مرا يزيل أثر كل رحمة سابقة كانت نسبية حتى جاء ديسيوس فانزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان، ولنترك القلم لبطيريك الإسكندرية، يصف بعض ماعين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه، فهو يقول : «لم نكد نتنفس الصعداء ، حتى خلق بنا الخوف وحفنا الخطر، عندما بدل ذلك الملك الذى كان أرق جانبا ، وأقل شرا من غيره، وجاء مكانه ملك آخر، ربما لايجلس على كرسى المملكة حتى يوجه أنظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا. وقد تحقق حدسنا، عندما أصدر أمرا شديدا الوطأة . فعم الخوف الجميع، وفر بعضهم، وقد أبعد كل مسيحي من خدمة الدولة، مهما يكن ذكاؤه، وكل مسيحي يرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة . بعد أن يجتهدوا فى حمله بالترهيب . . . ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار، أو من زج به فى غيابات السجون» .

وهكذا يقص ذلك القسيس ما نزل بهم حتى انتهى به الأمر إلى فراره هو، وقد كتب يعتذر^(١) عن ذلك إلى بعض من أبلوا بلاء حسنا، ولم يلونوا بالفرار .

ولم يكن البلاء مقصورا على مصر ، بل كان يتتبع المسيحيين، فى الدولة الرومانية حيثما ثقفوا، وأينما كانوا . ولى بعد ديسيوس من أوقع البلاء وأنزله بالمسيحيين، ولكن كان أشد هؤلاء وأبلغهم أذى وأنكأهم بطشا - دقلديانوس الذى جاء إليهم، بعد أن خف العذاب عنهم قليلا، وقد رجوا فيه خيرا، وأملوا منه أن يكون عوناً، لأن مدير خاصته مسيحي، ولكنه كان أشد من غيره على المسيحيين، وخصوصا المصريين، وذلك لأن المصريين رأوا أمما تحلت من حكم الرومان، وفكوا أغلاله ، فاقتدوا بهم، ونزعوا إلى السير فى طريق الحرية والاستقلال، وساروا فيه، وعقدوا الإمرة لواحد منهم، فجاء دقلديانوس إلى مصر، وأنزل بها البلاء، وأزال استقلالها، وأعاد فتحها، وكانت كثرتها فى ذلك الإبان مسيحية، وقد أمر بهدم الكنائس، وإحراق الكتب، وأصدر أمرا بالقبض على الأساقفة والرعاة، وزجهم فى غيابات السجن، وقهر المسيحيين وحملهم على إنكار دينهم، وقد استشهد فى هذا الوقت عدد كبير من الأقباط تجاوزت عدتهم أربعين ومائة ألف، وعدهم بعض المؤرخين ثلاثمائة

(١) راجع فى هذا كتاب تاريخ الأمة القبطية الجزء الأول من ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦ .

ألف، ولكثرة ما استشهد من شهداء وما نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثا ذا خطر فى شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم؛ وذلك فى سنة ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين، يمنا وبركة على المسيحيين، لا على المسيحية كما سنيين .

أثر الاضطهادات فى الديانة :

٢٠ - هذه هى الاضطهادات التى قارنت المسيحية فى نشأتها وفى تكوينها وليدا وفى تدرجها، وفى عصر تنويناها ورواية كتبها، وهى مع أسباب أخرى جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب، وجعلت بعض العلماء المسيحيين أنفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب فى الأناجيل بأنها نوتت فى عصور اضطهاد المسيحية الأولى، بل إن مناظرهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سببا فى فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة . يقول الشيخ رحمة الله الهندي فى كتابه إظهار الحق : «طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم، فقال : إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا كتب الإسناد لهم، فما رأينا فيها شيئا غير الظن، يقولون بالظن، ويتمسكون ببعض القرائن . وقد قلت أن الظن فى هذا الباب لا يغنى شيئا، فما داموا لم يأتوا بدليل شاف، وسند متصل فمجرد المنع يكفينا . وإيراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا» . وفى الحق أن تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به فى شئونهم الدينية - وخاصة ما كان متصلا ببيان الشريعة - يقومون به سرا لا جهرًا ، وفى خفية من العيون المتربصة، والأعداء المترقبين، والسرية يحدث فى ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن إلى ما يحكى عما يحدث فيها، فيتظن فى كل ما يروى عنها، ولا مانع من أن يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها، وينقل عن أشخاصهم ما لم يقولوه، ويتسامع الجمهور أمورا ما حدثت فى تلك الاجتماعات، ولا قالها حاضرهما، فإذا جرى الشك والريب فيما نون من كتب المسيحية التى فقدت سندها بسبب هذا الاضطهاد، والتى كتبت فى ظلمة السرية، يكون قد وقع حيث وجدت دواعيه، وقامت شواهد .

الفلسفة الرومانية والمسيحية :

٢١ - ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم، ومنهم من يظهر الوثنية ويبطن المسيحية، ومنهم من دخل النصرانية وفي رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع منه ولم تزيله، وإن زایلها بعقله المدرك فعقله الباطن مازال مستقراً لها. ومكنا تكمن فيه، وهؤلاء لا شك تفكيرهم أضر في المسيحية التي لم يكن لها قوة تحميها وشكيمة تعقل النفوس إلى حظيرتها.

وإن التاريخ يروى لنا أنه في القرن الثاني، والثالث، والرابع الميلادي قد دخل الرومان والمصريون أفواجا أفواجا في المسيحية. فمن حق العلم أن نحكى ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار، وما كان يسود تفكيرها من منازع عقلية ودينية، ولا نعتمد في ذلك إلا على ما أثبتته تاريخ العلم والفلسفة، وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكى التاريخ أن مدينة الرومان لم تكن متناسقة تناسقا اجتماعيا، فلم يكن توزيع الثروة فيها توزيعا يتحقق معه العدل الاجتماعي، فبينما ترى ترفا ورخاء لمن أفاءت عليهم الدولة بالفئ والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية، ترى ألوف الألوفا من الناس قد حرموا ما يتبلغون به في حياتهم، فاستولى عليهم الإحساس بالظلم، والسخط على الحياة، والتملل بها، والناس لا يشقون لآلامهم وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التي امتنعت عليهم، وكذلك كانت آلام سواد الرومان، ولولا الإيمان بحياة مستقبلية، يستمتعون فيها بما حرموا منه في هذه الحياة، لضاقت الصدور بما يجلجل في القلوب، ولانفجرت في ثورة اجتماعية، لكن توجهت هذه النفوس إلى الإيمان بعالم علوي، واعترف الإنسان بعجزه التام عن معرفة نفسه وإسعادها، إذا اعتمد على تفكيره فقط، لذلك رجعوا إلى الدين .

وفي هذا الوقت أراد الفلاسفة أن يحلوا فلسفتهم محل الأديان، إذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها، ولم يعد لها سلطان في تصريف سلوك الإنسان، وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان، كلاهما فيه قوة وبأس، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم في حاجة إلى عزاء من الدين، وسلوى باليوم الآخر، وملاذ إلى حياة روحية، والفلسفة - بما لها من سلطان العقل - لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها، حينئذ التحمت الفلسفة بالشعور الديني، أو التقت الفلسفة والدين، ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاما، بل كان محبة وسلاما، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما، لا داعية افتراق .

قال فندلبند فى ذلك : «إن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهديب الآراء الدينية، وترتيبها، ولتقدم بالشعور الدينى اللجوج فكرة فى العالم تقنعه، فأوجدت نظاما دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقا يختلف قلة وكثرة .

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادئ الفلسفية، فما هذه الأديان المتضادة التى ألفت بينها الفلسفة، وجعلت من نعماتها المختلفة نغمة واحدة مؤتلفة ؟

إن التاريخ يقص علينا أن الأديان التى كانت فى بلاد الرومان ثلاثة : الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة، فهل عملت الفلسفة على إيجاد ديانة تجمع بين المسيحية واليهودية، وفيها وثنية؟ وهل المسيحية التى تؤمن بالتوراة التى عند اليهود على اختلاف هيئ، وتؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وتقدس الصليب، هى النظام الدينى الجامع بين الأديان الثلاثة !! لنترك ذلك الآن . وقد وضعنا أمام القارئ المصباح الذى يرى به الطريق .

الأفلاطونية الحديثة وأثرها فى النصرانية :

٢٢ - ولنتجاوز رومة الرومان ولنعبّر البحر الأبيض، ولنيمم شواطئه الجنوبية، فهناك نجد مدينة الإسكندرية ومدرستها، وفلسفتها التى كانت تشع على العالم كله بنور العلم؛ وقد أوى إليها فلاسفة اليونان، وتابعوا الفلسفة اليونانية، والتى نراها تتجه اتجاها واضحا إلى النواحي الدينية، والبحث فى منشئ الكون .

كان شيخ هذه المدرسة أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢، اعتنق فى صدر حياته الديانة المسيحية. ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ وقد تعلم فى مدرسة الإسكندرية أولا، ثم رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية، وأطلع على تعاليم بوذا وديانته، وبراهمة الهند وديانتهم. وعرف آراء البوذيين فى بوذا والبراهمة فى كرشنة، وقد عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وأخذ يلقى بآرائه على تلاميذه، وجلّها يتجه إلى تعرف ما وراء الطبيعة، ومنشئ الكون .

ويلخص اعتقاده فى منشئ الكون فى ثلاثة أمور :

(أولها) أن الكون قد صدر عن منشئ أزلى دائم لاتدركه الأبصار، ولاتحدده الأفكار، ولاتصل إلى معرفة كنهه الأفهام .

(ثانيها) أن جميع الأرواح شُعب لروح واحد وتتصل بالمنشئ الأول بواسطة العقل

(ثالثها) أن العالم في تدييره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة، وهو تحت سلطانها .
فاله منشي الأشياء وهو مصدر كل شيء، وإليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف
الحوادث . فليس بجوهر ولا عرض، وليس فكرا كفكرنا . . ولا إرادة كإرادتنا، ولا وصف
له، إلا أنه واجب الوجود، يتصف بكل كمال يليق به، يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود،
ولا يحتاج هو إلى موجود، وأول شيء صدر عن هذا المنشي في نظر أفلوطين هو العقل
المصدر عنه كأنه يتولد منه، ولهذا العقل قوة الإنتاج، ولكن ليس كمن تولد عنه، ومن العقل
تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح، وعن هذا الثالث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء.

٢٣ - هذه فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية عندما أريد تحويلها، وترى أن
فلسفة الرومان ترمى إلى إيجاد ألفة بين الوثنية واليهودية ومسيحية المسيح عليه السلام،
كما ترى أن فلسفة الإسكندرية ترجع العالم في تكوينه وتدييره إلى ثلاثة عناصر أو إلى
ثالث مقدس هو المنشي الأول، والعقل الذي تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح
الذي يتصل بكل حي ومنه الحياة، فإذا عبّرنا عن المنشي الأول بالآب، وعن العقل المتولد عنه
بالابن، وعن الروح بروح القدس، كما هو ثالث النصارى الذي أخذ ببعضه مجمع نيقية،
وبكله المجمع التي جاءت من بعده، لما خرجنا في التسمية عن الصواب، وما كان فيها أى
تسامح؛ فذلك الثالث في معناه هو ثالث النصارى، وإذا لم يختلف المسمى، فلماذا يختلف
الاسم؟

وهنا يرد على النفس سؤال : أيهما استقر، وأيها كان ينبوع ؟ هل أخذت
الأفلاطونية الحديثة من النصرانية، أم النصرانية الحاضرة هي التي أخذت عن الفلسفة ؟
إن الجواب عن هذا يقتضى تعرف السابق منهما، فالسابق بلاريب أستاذ اللاحق، والزمن
هو الذى يحكم ويفصل، وسنجد فيما يلى من البحث أن مجمع نيقية هو الذى سار فى
تقرير هذا الثالث، ووضع الأساس لمن بعده، أو بعبارة أدق قرر ألوهية الابن، وأن جوهره
هو جوهر الآب، وقد جاء فى قراره «إن الجامعة المقدسة، والكنيسة الرسولية تحرم كل
قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من
لاشيء، أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الآب، وكل من يؤمن أنه
خلق، أو من يقول أنه قابل للتغير (١) » .

(١) اطلع زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا على هذا
الاستنباط التاريخي فقال : إنه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين، ثم ترجمه، وتفضل فأرسل إلينا نص
الترجمة وما هي ذى، ننشرها مع بحثنا شاكرين له - رحمه الله - فضل تعاونه =

وهذا المجمع كان فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، والمسيحيون قبله كانوا على اختلاف كبير جدا، ويكفى للدلالة على هذا الاختلاف أن الذين حضروا المجمع نيف وأربعون بعد الألفين، وهم على آراء مختلفة، ولم يجمع أعضاء هذا المجمع على نحلة واحدة، أما عقيدتهم فى الابن وقولهم أنه تولد عن المنشى من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة، وأنه من

= التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الإغريقية

١ - كانت المشكلة الفلسفية التى واجهت الإغريق أولا هى : «ما مبدأ كل شىء؟» وباجتهاد الفلسفة فى الإجابة عن هذا السؤال إجابة محدودة ومقنعة شيئا فشيئا كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التى تتابعت فى تاريخ الفلسفة الإغريقية . هذه فلسفة بدأت طبيعية مع الفلاسفة الأيونيين، ثم أخذت فكرة التوحيد فى الظهور على أيدى سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، بحيث رأى هؤلاء أن المبدأ الذى صدر عنه العالم هو الله الواحد الذى لم يتغير، على غموض فى تعيين هذه الصفات ونحوها مما يصح أن يتصف بها .

ولكن بمقدار تبين هذه المعارف والمعلومات عن الله كانت تكمن الصعوبة الأساسية التى اصطدمت بها المذاهب التى سبقت سقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج الكثير - أى العالم - من الواحد ، والمتغير من الذى لا يتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيروته روحيا، ومن عدم التغير الحق بصيروته كاملا، تتسع الهوية التى تفصله عن العالم وكثرته، وتصير أكبر عمقا، كما يصبح عسيرا فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه .

٢ - إذا كان الله واحدا وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل فى ذاته كثرة بأى وجه من الوجوه ؟ وإذا كان كماله المطلق يقتضى عدم التغير ، كيف نفهم أنه فى وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير، مع أنه انتقل من حالة عدم العمل إلى العمل؟ هنا تظهر عبقرية العقل الأرى ! الواحد البرىء من التغير لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة، يجب إذن أن تتوسط بينهما وسائط أزلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقى .

٣ - كان أفلاطون أول من أدرك تلك المشكلة وأول من أدرك هذا الحل الذى وجب على العقل الإغريقى فيما بعد - بعد إنضاجه طويلا - أن يجتمع نهائيا عليه أعنى عقيدة ثلاثة أقانيم أو عقيدة التثليث ص ٧٠ - ٧١ .

٤ - هذا المذهب أو هذه العقيدة التى تمثلها عقل أفلاطون، وإن أدركها إدراكا فيه نوع غموض، ليس إلا عقيدة التثليث المشهورة، ومن السهل إدراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه خارجين عنه، وعلى نحو ما داخلين فيه، أى =

جوهر أبيه، كما يقولون لم تسد إلا بعد ذلك المجمع، وسيأتي لذلك فضل بيان إن شاء الله تعالى، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخرا عن أفلوطين؛ لأن أفلوطين توفي سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما علمت، والتثليث لم يتكامل إلا في آخر القرن الرابع، والمنتقد أستاذ المتأخر كما يرجح العقل وكما يوجبه الظن الذي لا يعد من الإثم .

ولقد ترى ذلك الظن عند بعض علماء أوروبا، حتى شك بعضهم في حياة المسيح وقالوا إنه شخص خرافي لم يوجد، أراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة، وتسود الكافة، وقد تم لهم ما أرادوا، ولكننا نحن المسلمين لانقر ذلك كله، لما فيه من إنكار وجود المسيح الذي نؤمن به، ونزل بخبره الوحي الأمين، وإن كنا نصدق ليه .

=تتضمنها ذاتة - صادقين عنه، دونه في الكمال، ويجعلان ممكنا أن يصدر عن الله العالم الكبير المتغير، أول هذين الوسيطين العقل، وثانيهما الروح الإلهية - ص ٧٣ - ٧٤ .

٥ - وهكذا، كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الإغريقية، لم ينتج فلسفة فقط، بل أنتج معها دينا أيضا، أعنى المسيحية التي تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الأفلاطونية الحديثة (يريد فلسفة أفلاطون التي كانت المعين الأصلي للفلسفة الأفلاطونية الحديثة) مشابهاة كبيرة، وإن افترقا أحيانا في بعض التفاصيل، فإنهما يرتكزان على عقيدة التثليث، والأقانيم الثلاثة واحدة فيهما - ص ٩٣ .

٦ - أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال، والذي يحوى في وحدته كل الكمالات، هو الذي دعاه المسيحيون الأب . والثاني أو الابن هو الكلمة . والثالث هو دائما الروح القدس ص - ٩٢ - ٩٤ .

على أنه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحي عن الأفلاطونية الحديثة) أن الأقانيم الثلاثة ليست في نظر هذا المذهب متساوية في الجوهر والرتبة . بينما هي متساوية عند المسيحية . فالابن الذي يتولد من الأب لا يمكن أن يكون أدنى منه كمالا . وإلصا من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل . وهذا حظ من رتبته . وكذلك الروح القدس مساو للأب والابن - ص ٤٩ .

كل هذه النقول من كتاب : «مقدمة (أو المدخل) لدراسة الفلسفة الإسلامية» تأليف المستشرق

المعروف ليون جوتييه طبع باريس عام ١٩٢٣ .

مصادر المسيحية بعد عيسى

٢٤ - الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأنجيل، ورسائل، الرسل، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد القديم، وتسمى الأنجيل، ورسائل الرسل : كتب العهد الجديد، فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم فى عصوره الأولى، وأجياله القديمة، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية، وتاريخ نشأتهم، وحكوماتهم وحوادثهم، والنبوات السابقة منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض، والبشارات بالنبين اللاحقين، وبالمسيح، وفيها يجدون أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود. ولنترك الكلام فى التوراة وأسفارها، فلذلك موضعه من الدراسة للديانة اليهودية، بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند اليهود مرفوضة عند المسيحيين، لعدم اعتقادهم بصحة الوحي فيها .

الأنجيل :

٢٥ - أما كتب العهد الجديد فهى التى تعيننا فى هذا البحث، وبهمننا أن نجلي أمرها، ونعرف حقيقتها، وأولها الأنجيل .

والأنجيل المعتبرة عندهم أربعة: إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا .

ومكان الأنجيل فى النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما حاطوها به من أفكار هى شعار المسيحية، فإن هذه الأنجيل هى المشتمة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه فى اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهى بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح فى زعمهم، والصلب والفداء، أى أنها تشتمل على لب المسيحية فى نظرهم بعد المسيح ومعناها .

هذه الأنجيل الأربعة هى التى تعترف بها الكنائس، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها، ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت فى العصور الغابرة أنجيل أخرى، قد أخذت بها فرق قديمة، وراجت عندها، ولم تعتق كل فرقة إلا إنجيلها، فعند كل من أصحاب مرقسيون، وأصحاب ديسان إنجيل يخالف بعضه هذه الأنجيل، ولأصحاب مانى إنجيل يخالف هذه الأربعة، وهو الصحيح فى زعمهم، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس،

والنصارى ينكرونه، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة، إنجيل سرن تيس، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة؛ وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية، ثم أرادت الكنيسة فى آخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة - فى اعتقادها - فاخترت هذه الأناجيل الأربعة الرائجة إبان ذلك .

ولقد يذكر بعض المؤرخين أنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث . وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس فى سنة ٢٠٩ . ثم جاء من بعده كليمنس إسكندريانوس فى سنة ٢١٦، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، ولم تكف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة، بل أرادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها، ورفض غيرها، وتم لها ما أرادت فصارت هذه الأناجيل هى المعتمدة دون سواها .

ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وأدوارها فى التاريخ أن نعرف هذه الأناجيل التى أهملت، وما كانت تشتمل عليه، مما كان سببا فى رفضها، وحمل الناس على تركها، وخصوصا أنها كانت رائجة . ويأخذ بها طوائف من المسيحيين ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها، فإن الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس فى المسيح، وكيف كان، وخصوصا بين أولئك الذين قاربوا عصره، وأدركوا زمانه، ولقوا تلاميذه، ونهلوا من مناهلهم، وإذ ضمن التاريخ بحفظ نسخ منها، فقد كنا نود أن نطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها، وما كان من سبب رفضها، وترينا حجة الرفض، لتكون دليلا منيرا لها على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ولم تغيرها، ولكن ضمن التاريخ علينا، فطوى تلك الأناجيل، وضنت الكنيسة فطوت تلك البيانات، فلم يبق لنا إلا أن نكتفى من الدراسة بما بين أيدينا، لعل فيه غناء إن أنعمنا النظر وأمعنا فى الاستنباط، وجعلنا لقضية العقل سلطانا، ومن بدهياته برهانا .

الأناجيل لم يملها المسيح ولم تنزل عليه :

٢٦ - وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح، ولم تنزل عليه هو بوحى إلهى، ولكنها كتبت من بعده - كما رأيت - وتشتمل على أخبار يحيى (يوحنا المعمدان) والمسيح، وما كان منه، وما أحاط بولادته من عجائب وغرائب، وما كان يحدث منه من أمور خارقة

للعادة، ولا تحدث من سواه من البشر، وما كان يحدث له من أحداث، وما كان يجرى بينه وبين اليهود، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث وأمثال ومواعظ، وفيها قليل من الشرائع التي تتعلق بالزواج والطلاق، ثم أخبار المؤامرة عليه، واتهامه والقبض عليه، ومحاكمته، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود، أم أمام الرومان. ثم فيها الحكم عليه بالموت صلبا، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون، وفيها أيضا قيامته من قبره، ومكوثه أربعين يوما، ثم رفعه إلى السماء. وفي الجملة هي تشتمل على أخبار المسيح وصلواته، وأقواله وعجائبه، من بدايته إلى نهايته في هذا العالم. وهذا - كما قلنا - لب المسيحية ومعناها، لأن فيها النواة الأولى لألوهية المسيح، وعقيدة النصارى فيه، ولنتكلم عن كل إنجيل من هذه الأنجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه، وتعرف بمؤلفه، ومكانته من المسيح.

إنجيل متى :

٢٧ - وقد كتبه متى، وهو أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، ويسميهم المسيحيون رسلا، وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب، وكانوا يسمون في ذلك العهد عشارين، ولقد كان جايبا للرومان في كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين، وكان اليهود ينظرون للجباية نظرة ازدراء، لأنها تحمل صاحبها على الظلم، أو على الأقل تحمله على العنف، والعمل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التي تحكم البلاد بغير رضا أهلها، ولكن السيد المسيح اختاره تلميذا من تلاميذه كما جاء في إنجيله. ففي الإصحاح التاسع منه: «وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية، واسمه متى، فقال له، اتبعنى، فقام وتبعه، وبينما هو متكى في البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاؤا، واتكئوا مع يسوع وتلاميذه.

فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه، لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة! فلما سمع يسوع قال لهم: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى، فاذهبوا وتعلموا ما هو، إنى أريد رحمة لا ذبيحة، لأنى لم أت لأدعو أبرارا، بل خطاة إلى التوبة».

ولما صعد المسيح إلى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية في بلاد كثيرة.

ومات في سنة ٧٠ ببلاد الحبشة على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة. وفي رواية أخرى أنه طعن برمح في سنة ٦٢ بالحبشة بعد أن قضى بها نحو

ثلاث وعشرين سنة داعيا للمسيحية مباشرة بها، فموطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هو الحبشة .

إنجيل متى كتب بالعبرية ولم يعرف إلا باليونانية وجعل المترجم :

٢٨ - وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية، كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية، ولكن موضع الخلاف فى تاريخ تدوينه، ومن الذى ترجمه إلى اليونانية، فمن المتفق عليه عند أكثرهم أن متى كتب إنجيله بالعبرانية. وذلك لأنه كتبه لليهود يبشر بالمسيحية بينهم وليقرأه مؤمنوهم بها، قال جيروم: «إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى فى أرض يهودية للمؤمنين من اليهود» وقال غيره : «إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى . وهو الذى انفرد باستعمال هذا فى تحرير العهد الجديد» .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ تدوين هذا الإنجيل وترجمته نرى ميدان الخلاف فسيحا . فنجد ابن البطريق يذكر أنه دون فى عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير أن يعين السنة التى كتب فيها .

ويذكر أن الذى ترجمه يوحنا، فيقول فى ذلك : «فى عصر قلوديوس كتب متاوس (متى) إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس . ونشره من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل» .

وهنا نجد لم يعين السنة التى كتب فيها الإنجيل، بل عين الملك الذى كتب فى عهده، وهذا الملك لم يكن هو الذى عاصر المسيح، ولا الذى يليه . بل الذى عاصر المسيح وصلب - على زعمهم - فى عهده طيباريوس، وولى من بعده غاببيوس، وملك أربع سنين وثلاثة أشهر، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك أربع عشرة سنة، فيحتمل تدوين هذا الإنجيل أن يكون فى آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح، ويحتمل أن يكون فى أول أو آخر العشرة الخامسة أو أوائل السادسة . فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا، وقال جرجس زوين اللبناى فيما ترجمه عن الفرنسية : «إن متى كتب بشارته فى أورشليم فى سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القديس إيرنيموس، والسبب فى ذلك على ما ذهب إليه القديس أبيفانيوس أنه كتبه إما إجابة ليكرز لليهود الذين آمنوا بالمسيح، أو إجابة لأمر الرسل، ولم

يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرانية على زعم أوسيبيوس فى تاريخه، وقد وافق أسيبيوس القديس أبرنيموس، إذ أن بانتيوس قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحى فى الهند، فوجد إنجيلا لمتى الرسول مكتوبا بالعبرانية، ف جاء به إلى الإسكندرية، وبقي محفوظا فى مكتبة قيصرية إلى أيامه، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت، وبعد فقدتها ظهرت ترجمتها فى اليونانية» اهـ .

وفى هذا يعين الكاتب تاريخ السنة التى دون فيها الإنجيل، ولكن لا يعين المترجم. بل يذكر أنه غير معروف، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه .

وبالنسبة لتاريخ التدوين يقول صاحب كتاب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين) : «إن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا، ومرقس ولوقا كتبنا إنجيلهما قبل خراب أورشليم . ولكن لا يمكن الجزم فى أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص، لأنه ليس عندنا نص إلهى على ذلك» .

وقال صاحب ذخيرة الألباب : «إن القديس متى كتب إنجيله فى السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين، وهى العبرانية أو السىروكلدانية . ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية . تم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدي النساخ الأيونيين ومسخته بحيث أضحى ذلك الأصل خاملا، بل فقيدا، وذلك منذ القرن الحادى عشر» .

وقال الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس، مخالفا جمهور المتقدمين فى أنه كتب بالعبرانية أو السريانية : «إن هناك من يقول أنه كتب باليونانية» ثم يرجح أنه ألف باليونانية مخالفا بذلك إجماع مؤرخيهم. ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه «ولابد أن يكون هذا الإنجيل قد كتب قبل خراب أورشليم» ويظن البعض «أن الإنجيل الحالى كتب ما بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥» . والحق أن باب الاختلاف فى شأن التاريخ لا يمكن سده، ولا يمكن ترجيح رواية، ولا جعل تاريخ أولى من تاريخ بالاتباع، ولذلك يقول هورن: «ألف الإنجيل الأول سنة ٢٧ أو سنة ٢٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٤ من الميلاد» . ونقول نحن : «يجوز غير ذلك، والجمهور على أنه كتب بغير اليونانية، ولكن لم

يعرف غيرها، ولم يعرف جمهرة المؤرخين من يكون المترجم، وفي أى عصر ترجم، وقد علمت أن ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذى ترجمه إلى اليونانية؛ ولكن لانجد أحدا من المؤرخين أيده، بل إن الكثيرين منهم يقولون: «إنه لم يعرف المترجم» .

أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم :

٢٩ - لاشك أن جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التى كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره، وعلم بالدين واللغتين التى ترجم عنها والتى ترجم إليها، كل هذا يؤدى إلى فقد حلقات فى البحث العلمى، ولئن تسامح الباحث فى تاريخ التدوين، وتاريخ الترجمة وملابساتها ليمنعنه العلم من الاسترسال فى التسامح، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذى ترجم، فلقد أردنا أن نعرف ذلك الأصل، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل، أم فيها انحراف، ولنعرف أفهم المترجم مرامى العبارات ومعانيها سواء أكانت هذه المعانى تفهم بظاهر القول أو بإشاراته، أم بلحن القول وتلويحاته أم بروح المؤلف وغرضه، ومرماه الكلى من الكلام. ولكن عز علينا العلم بالأصل، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم، وأنه ثبت ثقة أمين فى النقل، عالم لا يتزبد على العلماء، فقيه فى المسيحية حجة فيها، عارف للغتين فاهم لهما، مجيد فى التعبير بهما، فعندئذ كنا نقول : ثقة روى عن ثقة بترجمته، ونسد الخلة بتلك الرواية، ونرأب الثمة بتلك النظرة، ولكن قد امتنع هذا أيضا، فقال جمهرة علمائهم : إن المترجم لم يعرف، فبقيت الثمة من غير ما يرأبها .

إنجيل مرقس :

٣٠ - يقول المؤرخون أن اسمه يوحنا ويلقب بمرقس، ولم يكن من الحواريين الاثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح، واختصهم بالزلفى إليه، وأصله من اليهود، وكانت أسرته بأورشليم فى وقت ظهور السيد المسيح، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس - فى اعتقادهم - من بعد رفعه، وألهموا بالتبشير بالمسيحية، كما ألهموا مبادئها . ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : «وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته، وأنه فى هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه، وفى إحدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ» . وجاء

فى سفر الأعمال : «إن الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون فى بيته» ، ولقد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) ويولس الرسول فى رحلتها إلى أنطاكية وتبشيرها بالمسيحية فيها ، ثم تركها بعد ذلك ، وعاد إلى أورشليم ، ثم التقى مرة أخرى بخاله ، واصطحبه إلى قبرص ، ثم افترقا ، فذهب إلى شمال أفريقية ودخل مصر فى منتصف القرن الأول فاقام بها وأخذ يدعو إلى المسيحية التى كانت أخبارها قد سبقته إليها ، وقد وجد فى مصر أرضا خصبة لقبول دعوته ، فدخل فيها عدد كبير من المصريين ، وكان يسافر من مصر أحيانا إلى رومة وأحيانا إلى شمال أفريقية ، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له ، فاستمر بها إلى أن انتمر به الوثنيون ، فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه ، وكان ذلك سنة ٥٢ من الميلاد ، وقد جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحوارى ، وقد جاء فى ذلك الكتاب عن مرقس ، «صنف إنجيله بطلب من أهالى رومية ، وكان ينكر ألوهية المسيح» .

اللغة التى كتب بها إنجيل مرقس وتاريخ تدوينه والاختلاف فيه
وفى الكاتب :

٣١ - وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية ، ولم نر أحدا من كتاب المسيحيين ناقض ذلك ، وقد ذكر الدكتور بوست فى كتابه (قاموس الكتاب المقدس) أنه كتب الإنجيل باليونانية ، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية . وأخذ من ذلك أنه كتب فى رومة . ويجئ مثله فى تاريخ ابن البطريق ، ففيه : «وفى عصر تارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس فى مدينة رومية ونسبه إلى مرقس» .

ونوجه نظر القارئ إلى ما قاله ابن البطريق من أن الذى كتب الإنجيل هو بطرس عن مرقس ، ونسبه إليه ، فكان بطرس راوى مرقس . مع أن الأول رئيس الحواريين - كما يقول ابن البطريق - والثانى من تلاميذه ، كما جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار . وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحية ، فإذا رواه عنه أستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه ، وإن ذلك لغريب ، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : «قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته» . وقد ذكر الأمر بلفظ الزعم ، كأنه لا يصدق ، وأنه لا يراه مقبولا ، كما نراه

غريباً، ولكن هكذا يذكر الرواة. ويجوار هؤلاء الذين يقولون أو يزعمون أن إنجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس، وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم أرينيوس : «أن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس» .

وفى الحق أن ذلك الاختلاف، وإن كان زمنياً فى ظاهره، هو فى معناه وبه اختلاف فى شخص المحرر لهذا الإنجيل. فابن البطريق، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر أن الذى كتبه هو بطرس عن مرقس، ونسبه إليه، وأرينيوس يقرر أن الذى كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس، لأنه كتبه بعد موته. فمن الكاتب إذن ؟ ليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين على الأخرى ! . ولتجاوز هذا إلى تاريخ كتابة ذلك الإنجيل، فنجدهم أيضاً قد اختلفوا فى زمان تأليفه . وقد قال فى ذلك هورن : «ألف الإنجيل الثانى سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣» ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين : أنه كتب سنة ٦١ .

إنجيل لوقا :

٣٢ - يقولون : أن لوقا ولد فى أنطاكية، ودرس الطب، ونجح فى ممارسته ولم يكن من أصل يهودى، ولقد رافق بولس فى أسفاره وأعماله، وجاء فى رسائل بولس ما يشير إلى هذه الرفقة، وتلك الملازمة . وفى الإصحاح الرابع من رسالته إلى كورنثوس يقول: «ويسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب»، وفى الإصحاح الرابع من رسالته الثانية إلى أهل تيموثاوس يقول : «لوقا وحده معى»، وفى رسالته إلى أهل فلاديمون يقول : «مرقس وأرسترخس وديماس ولوقا العاملون معى» . من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو الأنطاكى، ومثل هذا جاء فى تاريخ ابن البطريق، ويستنبط القس إبراهيم سعيد من كون لوقا طبيباً معانى كثيرة تسمو بإنجيله، فيقول «وكان لوقا طبيباً، وهذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقى على حياة لوقا نوراً ساطعاً، فترينا إياه الرجل العلمى العملى المدقق المحقق، الرقيق الأسلوب ، الجميل الديباجة، لأن الرومان لم يسمحوا فى وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة » ، ثم يبين : «أن كونه طبيباً قد سرد ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعياً هادئاً من غير محاولة التدليل على جوازه، يؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم ، وإن كان فوق متناول العلم، وليس ضد الطبيعة، وأنه فوق مجرى الطبيعة» . ويرجح - كما قال كثيرون - أنه

ولد بإنطاكية، ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن إنطاكياً، ويبين أن الذين يقولون أنه إنطاكي وهموا ذلك أو ظنوه من اشتباهه بلوكيوس، فيقول : ظن بعضهم أنه (لوقا) مولود فى أنطاكية إلا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس . وزعم بوست أنه كان رومانيا نشأ بإيطاليا . ومهنة الطب التى نسب إليها ليست أيضاً موضع اتفاق، لأن بين المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصوراً .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقينى بمولد وصناعة كاتب هذا الإنجيل، فمن قائل أنه أنطاكى ولد بإنطاكية، ومن قائل أنه رومانى ولد بإيطاليا، ومن قائل أنه كان طبيباً، ومن قائل أنه كان مصوراً، وكلهم يتفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولا من تلاميذ حواريبه، ولبولس هذا شأن خطير فى المسيحية كما سنبين .

من كتب لهم إنجيل لوقا، ولغته، واختلافهم حوله :

ويختلفون أيضاً فى القوم الذين كتب لهم أولاً هذا الإنجيل . فالقس إبراهيم سعيد يقول : «إنه كتب لليونان، وإنجيل متى كتب لليهود وإنجيل مرقس يقول : كتب للرومان ، وإنجيل يوحنا كتب للكنيسة للعامة» . وإنما نجد إنجيل لوقا يبتدئ بهذه الجملة : «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين، رأيت أيضاً، إذ قد تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به» . وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق أنه من عظماء الروم، فيقول فى ذلك : «وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له توافيلا . وكتب إليه أيضاً الأبركسيس الذى هو أخبار التلاميذ» وهى الرسالة المسماة أعمال الرسل، وهناك من يقول أن ثاوفيلس هذا كان مصرياً ، لا يونانياً ، فهو قد كُتِبَ للمصريين لا لليونانيين .

ويقول الدكتور بوست فى تاريخه : «قد كتب هذا الإنجيل قبل خراب أورشليم وقبل الأعمال، ويرجح أنه كتب فى قيصرية فى فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ - ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك» . ومن هذا يفهم أن بوست يرجح أنه ألفه وبولس حى فى الأسر، ولكن يحقق العلامة لارون أنه حرر إنجيله ذلك بعد موت بطرس؛ وبولس . والواقع أن باب الخلاف فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل أوسع من ذلك، فقد قال هورن : ألف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ .

ولا نترك هذا الإنجيل من غير أن نقول أن الباحثين قد اختلفوا في شخصية كاتبه
وفى صناعته، وفى القوم الذين كتب لهم، وفى تاريخ تأليفه، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من
تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه . وإلا على أنه كتب باليونانية .

إنجيل يوحنا :

٣٣ - لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره فى نظر الباحث، لأنه الإنجيل الذى
تضمنت فقراته ذكرا صريحا لا الهية المسيح ، فهذه الألوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن
الاستدلال فيها . ولذلك كان لابد من العناية به ، إذ كان التثليث هو شعار المسيحية، وهو
مخالفتها لديانات التوحيد، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات، ويقول جمهور
النصارى، أن كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى بن زبدي الصياد الذى كان يحبه
السيد المسيح، حتى أنه استودعه والدته وهو فوق الصليب- كما يعتقدون - وقد نفى فى
أيام الاضطهاد الأولى، ثم عاد إلى أفسس، ولبث يبشر فيها، حتى توفى شيخا هرما .

هذه خلاصة ما جاء بكتاب مرشد الطالبين، ولكن بجوار هؤلاء من محققى
المسيحيين من أنكر أن يكون كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى، بل كتبه يوحنا آخر لا
يمت إلى الأول بصلة روحية، وأن ذلك الإنكار لم يكن من ثمرات هذه الأجيال، بل ابتداء فى
القرن الثانى الميلادى، فإن العلماء بالمسيحية فى القرن الثانى الميلادى أنكروا نسبة هذا
الإنجيل إلى يوحنا الحوارى، وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا
الحوارى، ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة، ولو كانت صحيحة لعلم
بذلك حتما تلميذه بوليكارب، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس ، ولأعلن هذا النسبة عندما
شاع إنكارها . ولقد قال أستاذين فى العصور المتأخرة : إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف
طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة لوجين فى القرن الثانى تنكر هذا
الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا، ولقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى
تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : «أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك
كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنتين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا
ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب الممرور فى متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح،
فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى، ووضعت
اسمه على الكتاب نصا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه

مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنما لخراف ونسحق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا، ولو بأوهى رابطة، ذلك الفلسفى - الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى - بالحوارى يوحنا صياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخطبهم على غير هدى».

هذا قول بعض الباحثين من كتابهم : «ومن البدهى أن يعد المتعصبون ذلك القول خروجاً على وجه المسيحية، ولذلك قال أحد هؤلاء المتعصبين، وهو الدكتور بوست رادا على هؤلاء : وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل لكرهاتهم تعليمه الروحى، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح، غير أن الشهادة بصحته كافية، فإن بطرس يشير إلى آية منه ٢ بط ١ : ١٤ قال يو ٢١ ، ١٨ ، وأغناطيوس وبوليكرس يقتطفان من روحه وفحواه، وكذلك الرسالة إلى ديونكيتس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانياس، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها إلى منتصف القرن الثانى، وبناء على هذه الشهادات، وعلى نفس كتابه الذى يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلمه، وإلا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم، وهذا الأمر يعسر تصديقه، لأن الذى يقصد أن يغش العلم لا يكون روحياً، ولا يتصل إلى علم وعمق الأفكار والصلوات الموجود فيه، وإذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بونا عظيماً، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادراً على تأليف كهذا، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا ذاته ولا يستطيع تأليفه بدون إلهام من ربه».

وإذا نظرنا إلى هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين، قسم يعلن به الكاتب شدة إيمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه. وهو القسم الذى ذكره فى عجز قوله، وهو أنه لا يستطيع أحد من الآباء بل لا يستطيعه أحد من الحواريين، بل لا يستطيعه الكاتب نفسه إلا بإلهام من ربه. ويلحق بهذا الجزء ما سبقه مما يماثله، فإن من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجاً، فإنه ليس فيه أية محاولة لها، أما القسم الثانى فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر فى صدر قوله، فإنه يقرر الاتفاق بين نص ما جاء فيه، ونص جاء فى رسالة بطرس الثانية، فهو يقول أن الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول ونصها مع الفقرة التى قبلها : «١٣ - ولكنى أحسبه حقاً مادمت فى هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة - ١٤ - عالماً أن خلع مسكنى قريب، كما أعلن ربنا يسوع المسيح أيضاً» موافقة الفقرة الثامنة عشرة من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل

يوحنا ونصها : «الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تنطق ذلك، وتمشى حيث تشاء، ولكن متى شخت فأنتك تمد يدك، وآخر يمنطقك، ويحملك حيث لاتشاء» .

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لا فى اللفظ ولا فى المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة، ولا جامع بينهما، فظننا أن هناك خطأ فيما كتبه الدكتور بوست، وقلنا لعله يريد الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية، فرجعنا إلى الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من الرسالة الأولى، فوجدنا نصها هى وما قبلها هكذا : «لذلك منطلقوا أحقاء ذهنكم صاحين فآلقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التى يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة، ولا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم» وهنا نجد بعضا من الموافقة فى اللفظ، والموافقة فى المعنى، فرجحنا أنه أراد هذه الرسالة، وسبق قلمه فدون الثانية بدل الأولى، وعلى ذلك نناقش القول على أساسها، وأساس المناقشة ما نعرفه من أن المتأخر إن وافق قوله من سبقه يكون قوله شهادة للسابق، ولا يكون قول السابق شهادة له، وأيهما أسبق تدوينا رسالة بطرس أم إنجيل يوحنا، وقد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتله نيرون، ويقول فى ذلك ابن البطريق : «وأخذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكسا وقتله، لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكسا لئلا أتشبه بسيدى المسيح، فإنه صلب قائما» . . وعاش بطرس بعد السيد المسيح اثنتين وثلاثين سنة، فكأن بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥، لأن المسيح صلب فى اعتقادهم، وله ثلاث وثلاثون سنة، يضاف إليها اثنتان وثلاثون سنة عاشها بعده بطرس. ومن المؤكد أن إنجيل يوحنا كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست، فإذا وجدنا اتفاقا بين ما كتب فى هذا الإنجيل، وما جاء فى رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الإنجيل شاهدا لبطرس، لا أن بطرس شاهد له، وشهادة إنجيل يوحنا لاقيمة لها، لأنها شهادة إنجيل فى نظر من أنكروه مجهول غير معروف يحتاج إلى دليل، فلا حجة فى هذا الأمر، وعلى ذلك يكون الأمر فى غيره من الشهادات وسنين عند مناقشة كتبهم كثيرا من أوجه النقد فيها .

تاريخ تدوين هذا الإنجيل وسبب تدوينه :

٣٤ - ولقد اختلف المسيحيون فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافا بينا . فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦، ويقول هورن فى تاريخ تدوين

ذلك الإنجيل «ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ وسنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد» إذن فليس هناك محرر لتبوين هذا الإنجيل، كما أنه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه، وقد علمت ما فى ذلك .

ولقد قالوا أنه كتب لغرض خاص، وهو أن بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس إلها ، وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلا يتضمن بيان هذه الألوهية، فكتب هذا الإنجيل، وقد قاله جرجس زوين اللبناى فيما ترجمه : «إن شيرينطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنسانا . وأنه لم يكن قبل أمه مريم، فلذلك فى سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح، وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون؛ وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح» قال يوسف الدبس الخورى فى مقدمة تفسيره : (من تحفة الجبل) أن يوحنا صنف إنجيله فى آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ولوقا فى أنجيلهم، وقال صاحب مرشد الطالبين أنه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التى فيها كتب يوحنا إنجيله، فإن بعضهم يزعم أنه كتب فى سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يرون بكتابته فى سنة ٩٨، وذلك بعد رجوعه من المنفى، فالمقصد بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروى مما لم يذكره باقى الإنجيليين، وإفناء لبعض هرطقات مفسدة، أشهرها معلمون كذبة فى شأن ناسوت المسيح وموته، وخاصة ترسيخ النصرى الأوائل فى الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم، وقد قيل أن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك .

ما يستتبط من سبب كتابته :

٣٥ - من هذه النقول يستفاد أن كتاب النصرى يجمعون أو يكادون على أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا كتب لإثبات ألوهية المسيح التى اختلفوا فى شأنها، لعدم وجود نص فى الأناجيل الثلاثة يعلنها. وهنا لا يسع القارئ لتلك النقول إلا أن يستتبط أمرين : (أحدهما) صريح وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح، أو

هي كانت كذلك قبل تدوين الإنجيل الرابع على الأقل، وهذه حقيقة يجب تسجيلها، وهي أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح، (وثانيهما) أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليها، ويصرح بها، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم، ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم لم يجدوا مناصا من أن يلتمسوا دليلا ناطقا يثبت ذلك، فأتجهوا إلى يوحنا، فكتب كما يقولون إنجيله الذي يشتمل على الحجة وبرهان القضية، والبينة فيها، على زعمهم، وهذا ينبئ عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص في الكتب عليه، وإلا ما اضطروا اضطرارا إلى إنجيل جديد طلبوه، افتقدوه فلما لم يجدوا طلبوا من يوحنا أن يكتبه. ولكن الواقع أن رسائل الرسل التي كتبت في قولهم قبل هذا الإنجيل، فيها ما ينبئ عن ألوهية المسيح، ويعلنها، أقلم تكن فيها حجة لا تجعلهم في حاجة ماسة إلى إنجيل جديد، وفيها غناء من البيان يفنيهم عن سواه؟ أم لعل تلك الرسائل المشتعلة على هذه الألوهية كتبت بعد هذا الإنجيل ليؤيده بها، وليثبت ما أتى به، ويرسخ في نفوس المسيحيين، ثم نسبت إلى السابقين .

هذا تنبيه مجمل اضطرنا سياق البحث لبيانته قبل أوانه، وفي غير مكانه، وله في البحث موضع، يغنى فيه الإجمال عن التفصيل .

هذه الأناجيل لم تنزل على عيسى عليه السلام :

٣٦ - هذه هي الأناجيل التي ذكرناها كما كتب النصارى، لا كما يعتقد غيرهم. وستلقى عليها نظرة علمية بعد الكلام في بقية الكتب، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه إلى أن هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام في نظرهم، وليست منسوبة له ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه، ومن ينتمى إليهم، وهي تشتمل على أخبار المسيح وقصصه، ومحاوراته، وخطبه، وابتدائه ونهايته في الدنيا كما يعتقدون هم .

إنجيل عيسى :

ولكن هل هناك إنجيل غيرها يعد إنجيل عيسى، وهل في كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الإنجيل، وإن كنا لانجده !

نجد فى هذه الأناجيل عبارات تذكر كلمة إنجيل أو بشاره (وهى ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية) مضافة أحيانا إلى المسيح على أنه ابن الله ، وأحيانا إلى الله ، وأحيانا إلى ملكوت الله ، فنرى مثلا فى إنجيل متى فى الإصحاح الرابع منه ما نصه: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفى كل مرض، وكل ضعف فى الشعب»، وبشارة الملكوت هى ترجمة كلمة إنجيل باليونانية، ونرى فى إنجيل مرقس فى الإصحاح الأول منه : «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول : قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله. فتوبوا وأمنوا بالإنجيل» وجاء فى رسالة بولس إلى أهل رومية فى الإصحاح الأول منها «أولا أشكر إلهى يسوع المسيح من جهة جميعكم، أن إيمانكم ينادى به فى كل العالم فإن الله الذى أعبدته بروحى فى إنجيل ابنه شاهد لى كيف بلا انقطاع أذكركم» .

ويجئ فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس فى إصحاحها التاسع : «بصرت الضعفاء كضعيف لأريج الضعفاء، صرت لكل كل شئ لأخلص على كل حال قوما، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لأكون شريكا فيه» وفى هذا كله نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشاره (وهى ترجمة كلمة إنجيل اليونانية) مضافة إلى ملكوت الله، كما فى إنجيل متى ومرقس، وإنجيل الابن كما فى رسالة بولس إلى أهل رومية، وكلمة الإنجيل من غير إضافة كما فى إنجيل مرقس، ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى، ولا شك أن الإنجيل المذكور فى كل هذا ليس واحدا من هذه الأناجيل لأنها لاتضاف إلا إلى أصحابها باتفاق النصارى، ولأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل، كما جاء فى عبارة متى التى نقلناها، ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد فى عهده بالاتفاق، وليس من المعقول أن يعظ بأقوال تلاميذه، وهم بعد لا يزالون فى دور التعلم، ولأن هذا الإنجيل قد ذكر فى هذه الأناجيل على أنه كان قائما فى عهد عيسى، ولأنه ذكر من غير نسبة كما فى إنجيل مرقس ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف إليه كلمة إنجيل من غير نسبه إلى صاحبه، ولأنه ذكر فى رسالة بولس إلى أهل رومية منسوباً إلى المسيح الابن . وليس واحدا من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم . لهذا كله نقول : ليس هذا الإنجيل واحدا منها كما تقضى بذلك طبيعة السياق، وكما يقضى بذلك العقل، وإذا كان الأمر كذلك، فهل لنا أن نفهم أن هناك إنجيلا أصيلا نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ، ويعتبر الأصل لهذه الديانة ؟.

أقوال علماء النصرانية فى إنجيل عيسى :

ولقد يمهد لذلك الرأى، ويرشح له - أننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت فى القرن الأول رسالة تعتبر أصلا لهذه الأناجيل فيما جاء به المسيح، وخلصه أحواله، وهذا ترجمة ما قاله نارتن فى كتاب له : «قال أكهارن فى كتابه : إنه كان فى ابتداء الملة المسيحية فى بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال أنها هى الإنجيل الأسمى، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعو أقوال المسيح بأذانهم، ولم يروا أحواله بأعينهم . وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب .»

إذن فهؤلاء الأحرار يقرون أنه كان هناك إنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب، ولكنه غير موجود، فهل لنا أن نقول أن ذلك الإنجيل هو المشار إليه فى أقوال متى، ومرقس، وبولس السابقة، وهو الذى نزل على عيسى، أهو إنجيله وإنجيل الله ؟ ليت، وهل ينفع ليت، ليت هذا الإنجيل قائم، وحرصت الكنيسة على بقاءه، وقامت بحياطته ليكون فيصلا بين المختلفين، وحكما بين الفرق والمفرقين، وليكون قسطاس الجامع القديمة والحديثة التى حكمت حين الانشقاق، وليكون مصدرا علميا لمن يكتب فى المسيحية الأولى . ويتبعها فى مدارجها فى أحقاب الزمن وملابسات التاريخ .

إنجيل برنابا :

٣٧ - لقد كتبنا خلاصة ما بينه المسيحيون فى أناجيلهم الأربعة، واستتبطننا من نصوصها ما يدل على وجود إنجيل أصيل، هى منه الفرع من الأصل، على أن فى ذلك كلاما قد طويناه إلى موضعه من القول، وقد أيدنا فى استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين واستتبطنوا قريبا مما استتبطننا، وقبل أن نغادر الكلام فى الأناجيل إلى الكلام فى الرسائل يجدر بنا أن نتكلم فى إنجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمى، وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه فى نشأته يمتد إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى، وأبعد أغواره، وهو يشبه الأناجيل القائمة فى أنه قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه . ويحكى محاوراته، ومناقشاته وخطبه، ولكن الكنيسة لم تعترف به وأنكرته، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا،

ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية، وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية، والاهتمام، ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له . ذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا، ومن الحق علينا أن ندرسه، ونعرف رأى المسيحيين فيه، وما يؤدي إليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولاتهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على القوم فى دينهم .

برنابا :

٣٨ - جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى ينسب تدوينها إلى لوقا . فقد جاء فى الإصحاح الرابع من تلك الرسالة: «ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ : وهو لوى قبرصى الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدرهم، ووضعها عند أرجل الرسل» وجاء فى الإصحاح التاسع عند الكلام عن إيمان شاول - وهذا هو الذى اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول - أن برنابا هو الذى شهد له بالإيمان، وهذا نص ما جاء فيه : «ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ . وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل . وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق . وأنه كلمه، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع» ولقد ذكر ذلك السفر أيضا أنه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهداية، وفى الإصحاح الحادى عشر : «فسمع الخبر عنهم فى أذن الكنيسة التى فى أورشليم . فأرسلوا برنابا لكى يجتان إلى أنطاكية، الذى لما أتى، ورأى نعمة الله فرح ووعظ أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب . لأنه كان رجلا صالحا، وممثلنا من الروح القدس والإيمان، فانضم إلى الرب جمع غفير، ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول، ولما وجده جاء به إلى أنطاكية . . . »، ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطاب هو وبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمين، فقد جاء فى الإصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال : «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون: برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر، ولوكيوس القيروانى، ومناين الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع، وشاول .

وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى ثم أطلقوهما، فهذان إذ أرسلوا من الروح القدس انحدرنا إلى سلوكية، ومن هناك سافرا فى البحر إلى

قبرص . ولما سارا فى سلاميس ناديا بكلمة الله فى مجامع اليهود . وكان معهما يوحنا خادما» وقد استمر برنابا وبولس مصاحبين فى التبشير بالديانة المسيحية فى قبرص . وحدثت على أيديهما المعجزات، حتى زعم أنهما إلهان . وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما: فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما، واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين . «أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم، نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم ، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد» .

ومن هذا كله يتبين أن رسالة الأعمال تشهد أن برنابا كان من الرسل فى اعتقادهم الذين أخلصوا للدعوة إلى المسيحية، حتى باع كل ما يملك، وألقى بثمنه بين أيدي الرسل يتصرفون به فى سبيل نشر الدعوة، وينفقونه فى حاجات الجميع . وأنه هو الذى شهد لبولس بالإيمان . وأن الكنيسة أرسلتهما مبشرين بالمسيحية فى قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده إلى أنطاكية، وأن برنابا كان رجلا صالحا ممتلئا من الروح، وأن الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون .

وينص بولس فى رسالته إلى أهل كولووسى فى إصحاحها الرابع على أن مرقس صاحب الانجيل ابن أخت برنابا . فيقول : «يسلم عليكم أرسترخص المأسور معى، ومرقس ابن أخت برنابا الذى أخذتم لأجله إن أتى إليكم فاقبلوه» .

ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس فى سفرهما للدعاية والوعظ . ولقد افترقا بسبب إرادة برنابا أن يصحبهما ابن أخته فى الطواف فى المدن التى سبقت إليها الدعاية، ومخالفة بولس لذلك، ولذلك جاء فى رسالة الأعمال فى إصحاحها الخامس عشر ما نصه :«ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا : لنرجع ونفتقد إخواننا فى كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب، كيف هم؟ فأشار برنابا أن يأخذ معهما أيضا يوحنا الذى يدعى مرقس؛ وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما، فحصل بينهما مشاجرة، حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر إلى قبرص، وأما بولس فاختر سبيلا، وخرج مستودعا من الإخوة إلى نعمة الله» .

ولقد أشرنا إلى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الإنجيل عند الكلام فى إنجيل

مرقس، ونقلنا من كتب المسيحيين ما يدل على أن مرقس هذا، وهو حجة عندهم باتفاق، كان ينكر ألوهية المسيح، هو وأستاذه بطرس، وقد نقلنا عن مروج الأخبار في تراجم الأبرار ما يدل على ذلك .

هل برنابا من الحواريين الاثني عشر :

٣٩ - هذا هو برنابا . قديس من قديسى المسيحيين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية للمسيحية الأولى، وقد وجد إنجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه، والتقرب منه، وملازمته فى سرائه وخصرائه، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لاتعده من هؤلاء الحواريين وإن كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح ، ومهما يكن من شئ فى هذا الأمر، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم، فإن برنابا حجة عند المسيحيين، وهو من الملهمين فى اعتقادهم، فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة عليهم، يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق، وأصح سنداً، وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً .

فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث .

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمير أحد مستشارى ملك بروسيا، وذلك فى سنة ١٧٠٩ . وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٢٨ إلى البلاط الملكى بفيينا، وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم إليها .

ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة أسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الإنجليزية، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت فى إحدى الخطب، وقد قيل أن الذى ترجم النسخة الأسبانية إلى تلك اللغة مسلم نقلها من الإيطالية إلى الأسبانية .

ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية هى الأصل للنسخة الأسبانية، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الأسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها، فيقول : « أنه عثر على رسائل لإيرينانوس وفيها رسالة يندد

فيها بما كتبه بولس الرسول، ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا . وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقرئين إلى البابا سكس الخامس، فإنه عثر على ذلك الإنجيل في مكتبة هذا البابا، فأخفاه بين أردانه، وطالعه، فاعتنق الإسلام، ويظهر أن تلك النسخة هي نفس النسخة التي عثر عليها سنة ١٧٠٩ .

ويقول في ذلك الدكتور سعادة مترجم الإنجيل إلى العربية : «إذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر، وقد علمت مما مر بيانه أن نوع الورق الذي سطر فيه إنما هو ورق إيطالي يمكن تعيين أصله من الآثار المائبة التي فيه، والتي يمكن اتخاذها دليلاً صادقاً على تاريخ النسخة الإيطالية والتاريخ الذي يحده العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر، والسادس عشر، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الإيطالية هي عينها التي اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على مامرت الإشارة إليه .

الكلام في صحة تسمية هذا الإنجيل :

٤٠ - أقدم نسخة معروفة إذن هي النسخة الإيطالية التي عثر عليها في فجر القرن الثامن عشر، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس أو أول القرن السادس عشر، وقد وجدت في جو مسيحي خالص، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم .

فأول من عثر عليها في خزانة كتبه رئيس ديني خطير، وكاشفها راهب، ولما تداولتها الأيدي انتقلت إلى مستشار مسيحي من مستشاري ملك بروسيا، ثم آلت إلى البلاط الملكي بفيينا فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم، وهي منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواء، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود إنجيل له أمراً معروفاً بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول إنه أطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهداً على استنكاره بإنجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة - كما أشرنا من قبل، ويقول الدكتور سعادة : «يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية يعدد فيها أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا ، ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير » .

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء ، وإن كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فإذا فعل ذلك الباباجلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلافه ، وإذا صح ذلك الأمر - كما يشهد التاريخ ، وكما تنبئ عنه المقدمات والنتائج ، فإن إنجيل برنابا كان معروفاً متداولاً قبل النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من قرنين .

وزعم الدكتور سعادة بأنه لو كان معروفاً فى ذلك الإبان لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به ، أو أخذ منه - زعم باطل - لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يبق فى البلاد التى سادتها المسيحية أماداً تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيختفى ما كان ذائعاً ، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً ، فمائتان من السنين تكفى لطمس الموجود ، وتعفية آثار المفقود .

وأن المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة . حتى لقد يقول الدكتور سعادة : «إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لاتكاد تجد لها مثيلاً بين طوائف النصرانى إلا فى أفراد قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين ، كالمفسرين ، حتى أنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا » .

ترجيح صدق النسبة فى هذا الإنجيل :

٤١ - هذه بينات شاهدة - وإن لم تبلغ اليقين والجزم - بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحي خالص ، وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلاً ، وهو يدل على أن كاتبه على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحي غير الاختصاصى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من المختصين ، وأن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملاً لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو إنجيل .

هذه بينات تشهد بأن الإنجيل الذى كشف وعرف صحيح بالنسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئاً يظن فى حمله اتهاماً له . فيسند ملكيته إلى غيره نقياً للتهمة عن نفسه . فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاماً له ؟ وهل يقر القضاء ذلك النفى ؟ .

قد يقول قائل : إن هذه البيئات كلها مرجحة وليست يقينية، ونحن نقول أن أكثر مسائل التاريخ ترجيح، وليست يقينية جازمة، فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال فإننا نأخذ بذلك الظن، لأنه المأخذ في أكثر مسائل التاريخ، والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه، بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل، ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهراني المسيحيين، وفي مكاتبتهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد في إنشائه .

ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى، وهو زعم ليس له دليل، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه، ويبين تاريخ تدوينه، ومقدار نسبه .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح فى التبشير باسم النبى، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة، وسقيم العبارة فى أحيان كثيرة، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامى، ولا يتخذ من صلبه الإيطالى دليلاً على أصله المسيحى .

أما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحاً فيه وليس بتلميح فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح، وليس معنى ذلك نفى الصريح، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح، فالنص الإيطالى الذى بين أيدينا ترجمة لا نص، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى، فلم يسعفه فى لغته التلميح، فنطق بالتصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عربى .

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين فى غابره وحاضرهم، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظره المسيحى بهذا الإنجيل . مع أن فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم على المسيحى، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الإيطالية، فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً، ولو بطريق الوهم - هى تناقض أخبار التاريخ الإسلامى مناقضة تامة، وإلا

احتج المجادل عن الإسلام بها، ففيها أقوى دليل، والتاريخ لم يحفظ ذلك، وهذى سجلاته ليستنبطوها . وليعرفوا دخالها، فلن يجنوا شيئاً يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم .

قيمة إنجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه :

٤٢ - وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير، وسمو التفكير، والحكمة الواسعة، والدقة البارعة، والعبارة المحكمة ، والمعنى المنسجم، حتى أنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى، لسمو العبارة وبراعة التصوير .

ولماذا أنكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لاتقل عن قوة النسبة فى كتبهم الأربعة كما ذكرنا، إن لم تكن أقوى؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة .

ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين، لتعرف أى الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى، أذلك الإنجيل بما خالف، أم الرسائل والأنجيل التى توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار . كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل .

مخالفة إنجيل برنابا لما عليه المسيحيون :

والأمور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص فى أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلهاً، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال : «أيها الأعداء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذى أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحم نجس، الذى ضل فى عدادهم أيضاً بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيت» .

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن أن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطرت بسبب الشعب إلى أن أتى

هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجو من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك، لأن فريقاً يقول إنك الله، وآخر يقول إنك ابن الله، ويقول فريق إنك نبى . فأجاب يسوع : «وأنت يارئيس الكهنة . لماذا لم تخدم الفتنة ، وهل جننت أنت أيضاً، وهل أمست النبوات ، وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان» ولما قال يسوع هذا عاد فقال : «إنى أشهد أمام السماء، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برئ من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام» .

ويقول فى الفصل السابعين : «أجاب يسوع : وما قواكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلاً : اذهب . وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان، وتريد أن تسمى إلى» .

(الأمر الثانى) : أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل ، وليس بإسحق، كما هو مذكور فى التوراة، وكما يعتقد المسيحيون، هذا نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : «الحق أقول لكم أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلموا خبث كتبنا وفقهائنا، لأن الملاك قال : «ياإبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله . حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : «خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة» . فكيف يكون إسحق البكر، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين .

(الأمر الثالث) : هو كما يقول الدكتور سعادة «بك» : أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع، بل محمد . وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذبول، وقال أنه رسول الله، وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور «لاإله إلا الله محمد رسول الله» ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا : «إن الآيات التى يفعلها الله على يدي تظهر أنى أتكم بما يريد الله، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه، لأنى لست أهلاً لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى . وسيأتى بعدى بكلام الحق . ولا يكون لدينه نهاية»

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به . فصرح بما يعلن حقيقته، ويبين ماله من شأن .

(الأمر الرابع) : أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب، ولكن شبه لهم، فألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق أقول أن صوت يهوذا ، ووجهه، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً، وأن الآيات التى فعلها بصناعة السحر، لأن يسوع قال أنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم» .

ثم يبين أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه، فنزل بعد ثلاثة أيام .

ثم يقول : «ويخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات. وقام قائلاً : أحسبوننى أنا ؟ والله كاذبون، لأن الله وهبنى أن أعيش، حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم، الحق أقول لكم أنى لم أمت، بل يهوذا الخائن، احذروا، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم، ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل، وفى العالم كله، لكل الأشياء التى رأيتها وسمعتها» .

٤٣ - هذا هو إنجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية : وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها، فإن تلك المسيحية امتازت بالتقليد، وبنوة المسيح وألوهيته، وكان هذا شعارها الذى به تعرف، وعلامتها التى بها تتميز، وقد خالف كل هذا، وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهري ثابتة - وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم - فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرائى المسيحيين وفى مكاتب من لا يهتمون بالكيد للمسيحية، ومن لا يهتمون بأنهم لا يرجون لها وقاراً - رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع، فالكنيسة والمعتصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً، مادام قد أتى بما لا يعرفونه هم، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية، ينتهون فيها إلى نقضه جملة، أو قبوله جملة، أو قبول بعضه، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده، ومنتها أقرب إلى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته، وموازنة نصوصه بالتوراة والأنجيل ورسائل رسولهم، بل بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ومما هو مشهور عند المسلمين .

ومن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية، أن تعنى الكنيسة بدراسته، ونقضه، وتأتى لنا بالبيانات الدالة على هذا النقص، وتوازن بين ما جاء فيه وما جاء فى رسائل بولس، ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلا، وأقرب إلى الحق، وأوثق به اتصالا .

رسائل رسلهم

٤٤ - انتهينا فى كلامنا السابق إلى ذكر الأناجيل وعرضها، كما يقول المسيحيون، وكنا فى ذلك ناقلين، ولم نعن فى ذلك بالنقد، فإن لذلك موضعه.

والآن ننتقل إلى القسم الثالث من مصادر المسيحية، وهو رسائل رسلهم، ويسمونها - ما عدا رسالة أعمال الرسل - الأسفار التعليمية، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسفار التاريخية، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله، وبعض أقواله ومواعظه، أما الرسائل فإنها تعنى بالناحية التعليمية التى تبين بها الديانة .

عدد الرسائل وكاتبوها :

والرسائل اثنتان وعشرون رسالة : الأولى وتسمى أعمال الرسل، وتنسب إلى لوقا صاحب الإنجيل، وأربع عشرة كتبها بولس، وهى رسالة أهل رومية وكورنثوس الأولى والثانية، وغلاطية، وأفسس، وفيلينى، وكولوسى، وتسالونيكى الأولى والثانية، وتيموثاوس الأولى والثانية، وتيطس، وفيلمون والعبرانيين، ورسالة كتبها يعقوب، ورسالتان كتبهما بطرس، وثلاث كتبها يوحنا، ورسالة كتبها يهوذا .

وهناك غير الاثنتين والعشرين ، رسالة أخرى يسمونها السفر النبوى، وهى رؤيا يوحنا، وهذه الرسالة فى منحائها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة، فبينما الرسائل السابقة وعظية وتعليمية فى جملتها، وتتعرض كثيرا لذكر بنوة المسيح، وتخليصه للعالم من خطيئته، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتى؛ تعنى ببيان ألوهية المسيح وسلطانه فى السماء وعلمه بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده، وهى تارة تصور الإله فى عليائه كشخص أشيب يشبه المسيح متمنطقا عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وعيناه كذهب نار ، وفى يده سبعة كواكب، وسيف ماض نوحدين يخرج من فيه، (راجع الإصحاح الأول من الرؤيا) .

وتارة تصور المسيح خروفا قائما كأنه مذبح له سبعة قرون وسبع أعين، (راجع الإصحاح الخامس) .

وتبين أن الناس يعرضون أمام الإله والمسيح، ويخرجون ساجدين، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا

فهي رسالة تشرح سلطان المسيح في الملكوت وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح والله .

٤٥ - وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل، وقد كتبت جميعها باليونانية، كما يقول مؤرخوهم، وللباحثين كلام كثير في شأن الرسائل، وقوة سندها، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين، ولكننا نرجئ القول في ذلك إلى الكلام في نقد مصادر المسيحية نقدا علميا، ونكتفي الآن بعرضها وذكرها، محوطة بهالة من تقديسهم، ومكوءة بتقديرهم .

وقد ذكرنا موجزا لتاريخ يوحنا، وعرفنا القارئ به، وهو صاحب الرؤيا، وثلاث رسائل، وبيناً لوقا، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القارئ ببطرس صاحب الرسالتين، ويعقوب ويهوذا، ولكل رسالة، ويولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

فبطرس من حواربي المسيح، وكان اسمه الأصلي سمعان، وكان صياد سمك، وقد جال بعد المسيح للتبشير، فذهب إلى أنطاكية وغيرها، ثم ذهب إلى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج في السجن، وحكم عليه بالموت صلبا في زمن نيرون على مانوينا . وقد طلب أن يصلبوه منكسا حتى لا يتشبه بالمسيح .

وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار في تراجم الأبرار يخبر أن بطرس وتلميذه مرقس صاحب الإنجيل الذي كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر ألوهية المسيح .

ترجمة يعقوب صاحب الرسالة :

٤٦ - ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدي الصياد، أخو يوحنا، وكان حواريا كأخيه، ويقولون : إنه أول أسقف لكرسي أورشليم، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية: «كان لشهرته بالطهارة يعرف بـ يعقوب البار». وقد اغتاض منه رؤساء اليهود، فحكموه عليه بالموت في مجمعهم، فمات رجما سنة ٦٢ وكان قد كتب رسالته سنة ٦١ .

ترجمة يهوذا :

٤٧ - أما يهوذا، وهو حواربي، ويقولون أنه يدعى لباوس، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذي ذكر في إنجيل متى. ولكن إنجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا

الأسخريوطى الذى شهد على المسيح وخانه، وغير تداوس، ويقولون : أنه أخو يعقوب الصغير، وعلى هذا يكون لزبدي الصياد ثلاثة من الحواريين، ولكن متى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر أمامهما أنهما ولدا زبدي الصياد، ولم يذكر أمام تداوس !! وعلى أية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة إليه، وقد قالوا أنه مات شهيدا ببلاد العجم .

ترجمة بولس :

٤٨ - بولس : ولنتنقل الآن إلى الكلام فى بولس والتعريف به، وإن لبولس هذا لشأنا فى المسيحية؛ فهى تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه، فرسالته هى التى شرحتها، وقد كان بنشاطه الجم، وتطوافه فى الأقاليم مشرقا ومغربا، لا يستقر فى مكان على نية الإقامة فيه، بل على قصد فى الرحيل إلى غيره - أشد دعائها، وقد تأثر المسيحيون خطأ، وتعرفوا أخباره وأقواله، ما بونه منها فى رسالته، وما ألقاه فى الجموع وتناقلوه، وإن لم يدونه هو، وتأثروا أعماله فاحتنوا حنوه، وسلكوا مسلكه، واعتبروه القدوة الأولى، فلا بد إذن من العناية بتاريخه لتتعرف أكانت منزلته فى المسيحية الأولى، كمنزله فى المسيحية الحاضرة، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما، ونأقل الأولى إلى أهل الثانية، ولتتبين أنه صادق النقل، حتى تكون الأولى والثانية شيئا واحدا، وليستا شيئين مختلفين .

وإنما فى حكاية بدايته ونهايته نعتد على المصادر المسيحية وحدها، كسنتنا فيما أسلفنا من القول، حتى لا نتزيد عليهم، ولكى نعرض الرجل كما هو عندهم .

فى سفر أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس، وقد أخذت أعماله من ذلك السفر الشطر الأكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان فى طرسوس، وتربى فى أورشليم، واسمه الأصلى شاول. وهذا نص الفقرة الثالثة من الإصحاح الثانى والعشرين حكاية عنه : «أنا رجل يهودى ولدت فى طرسوس كيليكية، ولكن رببت فى هذه المدينة» (أورشليم) .

ولقد جاء أنه من الفريسيين الذين يقولون أن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح فى الدنيا، فقد جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين : «ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون، والآخرى فريسيون، صرخ فى المجمع، :أيها الرجال الإخوة أنا فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات . أنا أحاكم» .

ونجد كتاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود، ولكن جاء في سفر أعمال الرسل أيضا ما يدل على أنه روماني، ففي آخر الإصحاح الثاني والعشرين منه ما نصه : «فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف : أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضى عليه، فإذا سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلا : انظر ما أنت مزعم أن تفعل ، لأن هذا الرجل روماني. فجاء وقال له : قل لي أنت روماني ؟ فقال : نعم . فأجاب الأمير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية، فقال بولس: أما أنا فقد ولدت فيها. وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزعمين أن يفحصوه، واختشى الأمير لما علم أنه روماني، لأنه قيده».

وهذان بلا ريب نسان متعارضان، لعل أرجحهما أنه يهودي، لأنه ذكر أنه روماني عندما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط، فأعمل الحيلة ، عساه يجد مخرجا، فادعى أنه روماني لينجو جلده، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التي احتالها في انتسابه، وأصر عليها عندما روجع فيها .

ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلا على كذب ادعائه الرومانية، وأنه قالها خلاصا واحتياالا لورد مثل ذلك عندما قال أنه يهودي، لأنه كان يخاطب جمعا يهوديا عمل للقبض عليه .

ولقد صرح في سفر الأعمال أنه قال أنه فريسي ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين، فقد جاء فيه عند ذكر إقراره بأنه فريسي. ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون، إلخ . فهو ما صرح بهذا التصريح إلا ليوقع الفرقة بينهم، وينجو من كيدهم بتدبير فريق منهم .

رقد تم له بعض ما أراد ، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد، كما دلت على ذلك الفقرات التي ذكرت من بعد في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الأعمال، وإذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمئن إليه النفس .

٤٩ - ومهما يكن من أمر جنسه، فقد كان بولس هذا في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية، وأبلغهم كيدا لها، وأكثرهم إمعانا في أذى معتقها ، كما يدل على ذلك ما جاء في سفر الأعمال في مواضع كثيرة منه .

ففى الإصحاح الثامن منه : «وحدث فى ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم، فقتشت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل، وحمل رجال أتقياء استفانوس، وعملوا عليه مناخة عظيمة، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت، ويجر رجالا ونساء، ويسلمهم إلى السجن» .

وجاء فى أول الإصحاح التاسع : «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديدا وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا فى الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم» .

ويجئ فى ذلك السفر أيضا اعترافه الصريح بذلك الماضى فى مواضع متعددة، فمنها ما جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين مخاطبا اليهود: «كنت غيورا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق، حتى الموت ، مقيدا ومسلما إلى السجن رجالا ونساء، كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للإخوة إلى دمشق، ذهبت لآتى بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا» .

ولكن سفر الأعمال يقول أن ذلك الرجل الذى كاد للمسيحية هذا الكيد وأذى أهلها ذلك الإيذاء، قد انتقل من الجبت والطاغوت إلى المسيحية فجاء من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال، ولا تمهيدات مهدت له .

فيقول فى الإصحاح التاسع : «فى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق، فبغته أن برق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتا قائلا له : شاول. شاول . لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من أنت ياسيدى ؟ فقال : أنا يسوع الذى أنت تضطهده، صعب عليك أن ترفض مناخس، فقال وهو مرتعد متحير: يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقل لك ماذا ينبغى أن تفعل» .

دخل بولس أو شاول فى المسيحية، وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة، ولم يصدقوا إيمانه، ولكن شهد له برنابا الذى حدثاك عنه بالإيمان، وما حدث له فى الطريق .

فقد جاء فى الإصحاح التاسع أيضا من السفر المذكور: «ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل، وحدثهم كيف أبصر الرب، وأنه كلمه، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع» .

ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة، والحركة الدائبة فى الدعاية للمسيحية، كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال، وقد اصطحب فى رحلاته برنابا، حتى اختلفا كما ذكرنا فى الكلام على برنابا - فلما اختلفا افتترقا، وهناك نجد حلقة مفقودة، فلم يبين لنا سفر الأعمال على من تلقى مبادئ المسيحية التى أخذ يبشر بها، والتى دونها فى رسائله الأربع عشرة، والتى يضيف إليها بعض الكتاب سفر الأعمال، وينسبه إليه بدل نسبته إلى لوقا؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادئ المسيحية؟ ولعلمهم يعتقدون أنه ليس فى حاجة إلى التلقى، لأنه انتقل من مرتبة الكافر المناوئ إلى مرتبة الرسل فى المسيحية، وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم، فلم يكن فى حاجة إلى التعلم والدراسة، لأن الوحى كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس فى التطواف فى الأقاليم ينشئ الكنائس، ويقوم بالدعاية ويلقى الخطب، وينشئ الرسائل، حتى كانت رسائله هى الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادئ فى الاعتقاد، وبعض الشرائع العملية، وقد قالوا أنه قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف فى ذلك .

صفات بولس :

٥٠ - إن الذى يستخلص من أحوال وأقوال بولس التى دوت فى رسائله وأعماله التى ذكرها سفر أعمال الرسل، يتبين له أنه امتاز بثلاث صفات جعلته فى الذروة من الدعاة إلى المبادئ والعقائد :

الصفة الأولى : أنه كان نشيطا دائم الحركة ذا قوى لا تكل، وذا نفس لاتمل.

الصفة الثانية : أنه كان ألمعا شديد الذكاء بارع الحيلة، قوى الفكر، يدبر الأمور لما يريد بدهاء الألعى، وذكاء الأروعى، يسدد السهام لغاياته ومآربه فيصيبها .

الصفة الثالثة : أنه كان شديد التأثير فى نفوس الجماهير، قوى السيطرة على أهوائهم على انتزاع الثقة به ممن يتحدث إليه .

وبهذه الصفات الممتازة، وبهذه القدرة البارعة استطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية، وقطبهم، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين، فيعتنقوه دينا، ويتخذوا قوله حجة

زاعمين أن له رسالة أرسل بها، وبهذه الصفات الباهرة استطاع أن يحمل صديقه برنابا على أن يصدقه فى رؤيته المسيح، واستطاع أن يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ، وقد كان بلاءهم، وكيد الشيطان لهم. وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه، وأن يندغموا فى شخصه حتى يصير هو كل شئ، وهم لا يستطيعون رد قوله فى الجماهير، حتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه، منسوبة إليه، ولقد يعجب الذين درسوا الديانات وعرفوا أحوال رجالها، وأنوارهم، فيقولون: كيف ينتقل رجل من كفر بديانة إلى اعتقاد شديد بها طفرة، من غير سابق تمهيد، ولكن ذلك العجب يزول إن كان الانتقال مقصوراً على مجرد الانتقال من الكفر إلى الإيمان، فإن لذلك نظائر وأشباها، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة فى الدين الذى كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له نظير وليس له مشابه، ولم يعهد ذلك فى أنبياء ورسول فقط، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون كما رووها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولا بعث من غير أن يكون فى حياته الأولى استعداد لتلقى الوحى، وصفاء نفس يجعله أهلاً للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهابات قبل تلقيها، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب فى عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه .

بيد أن العقل يخترق بنوره الحجب، ويزيل بضوئه كل أسداف الظلم، ولو قاوم فى سبيل ذلك براعة بولس وذكاءه، ولذا وجد فى العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية حول أقوال بولس منكرين لها مبطلين، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الأحد: «إن بولس يبجل ويعظم رجلا اسمه عيسى أميت ومات. وحى فقط. وأن خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد تحمل اسم الرسول المشار إليه، فلا محمل للحيرة إذا قلت أن المؤسس الحقيقى للمسيحية الحاضرة هو بولس، فإن شاوول الشاب الطرسوسى من سبط بنيامين. ومن مذهب الفريسيين وتلميذ أحد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمانيل .. الذى كان يجتهد فى محو اسم عيسى وأتباعه من الأرض، والذى رأى عدوه الناصرى فى السماء» معا داخل الأنوار وقت الظهر أمام دمشق . اهتدى وسمى باسم

بولس. وهو الذى وضع أساس العيسوية. والقسم الأعظم من أعمال الرسل يبحث عن سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه، فهل هو صادق فى النقل عن المسيح، والإخبار عنه؟ للإجابة عن هذا السؤال موضعها عند الكلام فى الإلهام الذى نحلوه لرسولهم، ونقد الكتب نقدا علميا .

كتب العهد القديم والإنجيل والرسائل كتبت بإلهام فى اعتقادهم :

٥١ - إلى هنا قد بينا الكتب، وذكرنا طرفا من حياة منشئها، وأحوالهم ومقدار الاختلاف فى نسبة الكتب إلى أصحابها، وقبل أن ننتقل إلى نقد هذه الكتب نقدا علميا فى متنها وإسنادها، نقول : إن المسيحيين يقولون أن هذه الكتب كلها، كتبت بالإلهام ، وأنها لذلك لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فهى حق وصدق، لأنها موحى بها، وسواء فى ذلك كتب العهد القديم؛ والعهد الجديد، سواء أكانت أناجيل أم رسائل تعليمية أم رسالة النبوة .

ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الأمة القبطية فى شأن الكتاب المقدس : «الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التى كتبها رجال الله القديسون بإلهام الروح القدس فى أوقات مختلفة، وفيها أعلن الله مشيئته ووصاياها، وماقطعه من المواعيد، وما فرضه من المثوبة، وما فيه إرشاد للناس وخيرهم وخلصهم، وما أتمه من عمل الفداء» وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلمائهم نفهم أن الإلهام عندهم ، هو إلهام المضمون الرئيسى، ولذا يقول هورن: «إذا قيل أن الكتب المقدسة أوحى بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من إلهام الله، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا، على حسب طباعهم وعاداتهم وفهومهم، واستعمل علم الإلهام على طريقة استعمال العلوم الرسمية، ولايتخيل أنهم كانوا يلهمون فى كل أمر يبينونه، وفى كل حكم كانوا يحكمون به» .

إذن لم تكن كل الكتب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيان، ومن حيث التصرف فى التعبير، ومن حيث كل ما تشمل عليه من معان، بل موضع الإلهام فقط المعانى الرئيسية أو الرسمية، وبقية الأفكار والمعانى على حسب الطبائع والأفهام والعادات .

نظرة فاحصة فى الكتب

٥٢ - عرضنا على القارئ كلام القوم فى كتبهم، وحاولنا أن نكون حاكين ولم نعلق عليها ولم نقدها، ولم ننبه إلى وهنها، إلا إذا كان ذلك التنبيه قد سبق إليه علماءهم، والباحثون منهم، ووجهوا هم النقد إليه، أو كان الأمر من الوضوح بحيث يكون المرور عليه من غير تنبيه إلى موضع الضعف يجعل البحث غير متسق، وبعبدا عن الانسجام الفكرى .

والآن نريد أن ننقل من النظرة الحاكية المتفاضية إلى النظرة الفاحصة الكاشفة، ولسنا نريد أن نحصى كل أوجه النقد التى وجهت، فإن ذلك يحتاج بيانه إلى مجلدات ضخام لكثرتها، وتعدد نواحيها، وكثرة دواعيها، ولكننا نكتفى بإيراد بعضها، ونترك الباقي للاطلاع عليه فى مصادره المسيحية وغير المسيحية .

ما يجب أن يكون فى الكتاب الدينى من صفات ليكون حجة :

لأجل أن يكون الكتاب حجة - يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه، ومجموع أوامره ونواهيه، ومصدر الاعتقاد، وأساس الملة - يجب أن يتوافر فى هذا الكتاب أمور :

أحدها : أن يكون الرسول الذى نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة، أى بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين والمكذبين، وأن يشتهر أمر ذلك التحدى وهذا الإعجاز، ويتوارثه الناس خلفا عن سلف، ويتواتر بينهم تواترا لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه .

ثانيها : ألا يكون ذلك الكتاب متناقضا مضطربا يهدم بعضه بعضا، فلا تتعارض تعليماته، ولا تتناقض أخباره، بل يكون كل جزء منه متممًا للأخر ومكملا له، لأن ما يكون عن الله لا يختلف، ولا يفترق، ولا يتناقض، بل إن العقلاء، فى أقوالهم، وفى كتبهم، يتحرون ألا يتناقض قولهم، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : أن يدعى ذلك الرسول أنه أوحى إليه به، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة، وهى المعجزات التى بعث بها الرسول، ودعا إلى كتابه على أساسها، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر، أو يثبت بالكتاب نفسه .

رابعها : أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذى نسب إليه ثابتة بالطريق

القطعى بأن يثبت نسبة الكتاب إلى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف، جيلا بعد جيل من غير أى مظنة للانتحال .

وأساس ذلك التواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، حتى تصل إلى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوى عن الجمع الذى سبقه، والذى سبقه كذلك، حتى يصل إلى الرسول الذى أسند إليه الكتاب، ونسب إليه، ونزل به الوحي عليه .

تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى :

٥٣ - إن الكتب فى الدين هى أساسه؛ فإن لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملا، وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب، وبذلك يتهدم الدين من أساسه، ويؤتى من قواعد، ولا يكون شيئا مذكورا فى الأديان، بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس، وأدعواها دينا، ونسبوا لشخص معترف به، لتروج عند العامة، وتدخل فى أوهامهم، ويعتمدون على الزمان فى تمكينها فى نفوسهم وقلوبهم .

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أو العهد الجديد مستوفية هذه الشروط، فتكون ملزمة للكافة ؟

لا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها المسيح نفسه، حتى ننظر فى قوة نسبتها إليه، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها، يبشرون الناس بما فيها، فنبحث، هل هؤلاء رسل حقا وصدقا قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه ؟

لقد قلنا أن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم، ويتحدوا الناس ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم .

إننا نبحث فى مراجعهم فلا نجد مرجعا صحيحا قرر أن هؤلاء ادعوا مثل هذه الرسالة، ودعوا الناس إلى الإيمان بها، ومعهم البرهان عليها ، والدليل القائم الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم قد نجد فى رسالة أعمال الرسل ذكرا لأخبار تلاميذ المسيح، وأن روح القدس

تجلى عليهم، وأنهم كانوا يأتون بأمر خارقة للعادة، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلا، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر، وهم : بطرس، ويعقوب ، ويوحنا، وأندراوس، وفيلبس، وتوما ، وبرثولما، ومتى، ويعقوب بن حلفى، وسمعان الغيور، ويهوذا أخو يعقوب، وأن بطرس وقف وألقى فى وسط التلاميذ - الذين بلغوا نحو عشرين ومائة - خطبة، وأنهم امتلئوا جميعا بروح القدس، وتكلموا بألسنة غير ألسنتهم .

ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه، ومات من كذب عليه، بعد أن كشف كذبه واختلاسه، هو وامراته .

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس فى زعمه فى آخر ذلك السفر أيضا .

وكذلك نجد فى إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلا ليبشروا باسمه، وأنهم عادوا يقولون له : «حتى الشياطين تخضع لنا باسمك، فقال لهم: رأيت الشيطان ساقطا مثل البرق من السماء، وهانذا أعطيك سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب، وكل قوة العدو، فلا يضركم شئ؛ ولكن لاتفرحوا بهذا لأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت فى السموات» .

مناقشة ادعاء الإلهام فى سفر الأعمال :

٥٤ - ونريد أن نناقش أعمال الرسل وإنجيل لوقا فى هذا المقام لنعرف منه من هم هؤلاء الرسل، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس، نعم إنه ذكر أسماء الحواريين الأحد عشر، وليس منهم من ينسب إليه كتب أو رسائل، سوى متى ويطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا .

وقد علمت بعض ما فى نسبة إنجيل متى ويوحنا إليهما . وأما بطرس والباقون فلهم رسائل، ولم يكن معترفا بصحتها، هى رسائل يوحنا إلى سنة ٣٦٤ حتى أن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماء، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماؤهم ! نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء

أشخاص، ويوصفون بأنهم رسل، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة، أم ليسوا منهم، ومن المؤكد أن بولس لم يكن في العدد الذي ذكر في الأعمال، ولا في العدد الذي ذكر في إنجيل لوقا.

إذن لا مقنع فيما جاء في سفر الأعمال، ولا في إنجيل لوقا، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم. ثم من هو مؤلف سفر الأعمال! قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل. إذن فالمصدر هو لوقا في الاثنين، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل أنه مصور، أو هو طبيب مصور. فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه، لم يثبت شيء من ذلك، وكل ما ثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس، وإذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعاین، وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح، أو تلاميذ المسيح.

الرسل غير معروفين :

٥٥ - لم نعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل، ومن هم بسند صحيح، فضلا عن أن يكون السند قطعيا، وإذا كنا لانعرف من هم، فكيف نؤمن لهم بمعجزات؟ إن المصدر الذي ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذي ذكر الرسل من غير أن يبين من هم، وهو راو لم يعاین ولم يشاهد، وعلى ذلك يكون الكلام في الإلهام، وأنهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه، والاطمئنان إليه، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه.

ولكنا لا نكاد ننتهي إلى هذه النتيجة حتى نجد من مجادلي القوم، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه، صاحب سفر الأعمال، وصاحب الإنجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج إلى سند، لأن كل كلامه من الروح القدس الذي ملأه كما ملأ إخوانه الرسل، ولكن أين معجزته التي تثبت إلهامه حتى نصدق كل ما جاء في كتابيه، ويؤمن مؤمن (يحترم الإيمان) بكل ما اشتملا عليه! لم يرد عندهم أي شيء يدل على إلهام لوقا، وأنه كان من العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته، وامتلأوا بروح القدس في زعمه، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح (كما ذكر في إنجيله) وأخضعوا الأرواح وأخبرهم أن أسماءهم كتبت في السماء.

ولسنا في ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا، لنصدق بإخباره عن الرسل

وأعمالهم وعن إلهامهم، وامتلائهم بالروح القدس، وإعجازهم. لا يوجد أمامنا أى دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب، حتى كنا نصدق فى كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس، وامتثلوا به، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم، ولا شيئا عن أسمائهم وأعمالهم.

بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين وأن إنجيله لم يكن إلهاميا، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام، فقد قال من المحدثين، واطسن فى المجلد الرابع من كتابه الإلهام ما ترجمته: «إن عدم كون تحرير لوقا إلهاميا يظهر مما كتب فى ديباجة إنجيله ونصها:

إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المستيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين، وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به».

وبمثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهامى قال العلماء الأقدمون من المسيحيين، فيقول أرينوس: «إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا».

لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهما :

٥٦ - لم يكن إذن لوقا ملهما، لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهما، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهما فيما كتب، بل كتب ما تعلم، واقتن، لا ما أوحى إليه به وألهم.

وإذا كانت رسالة الأعمال هى المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح، ولأن لوقا لم يكن ملهما، وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا، وفى تلك الصحة كلام سننثته فى موضعه من بحثنا إن شاء الله.

ليس عندنا إذن دليل نقلى عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا، ويثبت معهم أنهم كتبوا بالإلهام، حتى يعتبر كلامهم وحيا أوحى به، ويجب تصديقه وقبوله، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها، بل إن راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدعون لأنفسهم أنهم رسل، ولا من تلاميذه العشرين والمائة، ولا من السبعين الذين ذكروهم لوقا.

وقد رأينا بطرس فى رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح، ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله. ولا نجد فى عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا بالإلهام، إلا رسائل بولس، فهو الذى يذكر فى رسالته أنه يتكلم عن الله. وأحيانا يقول أنه يتكلم من نفسه.

وإذن قلنا أن نقول أن أصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والإلهام إلا بولس الذى كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم، وليس فى كتبها ما يشهد له بالرسالة والإلهام، بله الإيمان، إلا سفر الأعمال، وقد علمت قوة الاستدلال به، والاعتماد عليه فى الاحتجاج والإثبات.

دعوى الإلهام ليست محل إجماع المسيحيين.

٥٧- وفى الحق أن دعوى إلهام الرسل فى كل ما كتبوا لم تكن محل إجماع من كتاب المسيحيين فى القديم والحديث، فطائفة من علماء إنجلترا قالوا فى مؤلف كتبوه^(١). «إن الذين قالوا أن كل قول مندرج فى الكتب المقدسة إلهامى لا يقدر أن يثبتوا دعواهم بسهولة» ثم قالوا : «إن سألنا أحد على سبيل التحقيق أى جزء تعتبرون من العهد الجديد إلهاميا، قلنا : المسائل، والأحكام، والإخبار بالحوادث الآتية التى هى أصل الملة المسيحية - لا ينفك الإلهام عنها. وأما الحالات الأخرى فكان حفظ الحواريين كافيا لبيانها».

وترى من هذا أن بعض العلماء لا يرون أن كل ما فى كتب العهد الجديد إلهامى بل منه الإلهامى وغير الإلهامى.

ولكن هناك من يقول أنه يشك فى أصل الإلهام فيهما، فهذا عالم مسيحي يقال له ريس، يقول ناقلا حاكيا بعض أقوال المتقدمين. «إن الناس قد تكلموا فى كون الكتب المقدسة إلهامية، وقالوا أنه يوجد فى أفعال مؤلفى هذه الكتب وأقوالهم أغلاط، واختلافات، فمثلا إذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الإصحاح العاشر من متى و ١١ من الإصحاح الثالث عشر من إنجيل مرقس، إذا قوبلت هذه الآيات بالآيات الست التى فى سفر الأعمال فى إصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختلاف جليا. وقيل أيضا أن الحواريين ما كان يرى

(١) أليسانى كلويديا برتنيكا.

بعضهم بعضا صاحب وحى، كما يظهر هذا من مباحثهم فى محفل أورشليم، ومن إلزام بولس لبطرس، وقيل أيضاً أن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزهين عن الخطأ، لأنهم فى بعض الأوقات تعرضوا له».

ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الإلهام فى شئ، فإنجيل متى على قول القدماء من المسيحيين، وقول جمهور المتأخرين الذين قالوا أنه كتب باللسان العبرانى كما أسلفنا من القول، قد قالوا أن أصله فقد، وترجمته ليست بالإلهام.

ويقول إستادلن وغيره أن إنجيل يوحنا ليس بإلهام، وجميع رسائل يوحنا ليست بإلهام على رأى فرقة لوجين، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، ورسالة يهوذا، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورؤياه التى تسمى الكتاب النبوى - كل ذلك عند الأكثرين ليس بإلهام، وكان كذلك إلى سنة ٣٩٣ ميلادية».

دعوى الإلهام باطلة ممن يدعيها:

٥٨ - ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها، وطريق الإلهام، فادعاء الإلهام على فرض اتفاقهم عليه ليس له من البيئات ما يثبت، ولا من الأدلة ما يقيم ادعاءه، ونحن نطالبهم بالدليل.

وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعا مجردا، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه، ولكن تتميما للبحث وتعريفا للحقائق نثبت أن دعوى الإلهام باطلة من أساسها، ليس لعدم إقامة الدليل عليها، بل لأن البيئات قائمة ضدها، وذلك لأنها لو كانت بإلهام من الله كما يقولون لكانت صداقة فى كل ما أخبرت به، وما وجد الباطل منفذا ينفذ منه إليها، ولم يكن ثمة محل لتكذيبها، ولكانت متفقة غير مختلفة، ولم تكن متضاربة بأى نوع من أنواع التضارب، وذلك لوحدة من صدرت عنه، لأنها جميعا صادرة عن واحد، وإن اختلف الناطقون بها، ولكننا وجدنا بينها اختلافات من أوجه عدة، ووجدنا فيها أخبارا تناقض ما علم فى التاريخ وكان مشهورا فيه، ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر.

التضارب بين كتب العهد الجديد :

(أ) أول ما يلقاك من أوجه اختلاف الأناجيل فى الأمر الواحد الذى لا يقبل إلا

حقيقة واحدة اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا في نسب المسيح، فإن من يقابل بين نسب يوسف النجار متبنى المسيح في الأناجيل يجد الاختلاف من ستة أوجه ذكرها الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق .. فقال :

١- في متى أن يوسف بن يعقوب، وفي لوقا أنه ابن هالي.

٢- يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام. ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داود.

٣- يعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون، ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان.

٤- يعلم من متى أن سلتائيل ابن بكينا، ومن لوقا أن سلتائيل ابن نيري.

٥- يعلم من متى أن اسم ابن زربايل أبيهود، ومن لوقا أن اسمه ريسا.

والعجب أن أسماء بنى زربايل مكتوبة في الباب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام من كتب العهد القديم. وليس فيها أبيهود ولا ريسا فكل منها غلط.

٦- من داود إلى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلا على ما بين متى، وواحد وأربعون جيلا على ما ذكر لوقا.

هذه أوجه اختلاف ستة في نسب المسيح عليه السلام وهو نسب يوسف النجار، الذي كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل، وهذا الاختلاف الذي يعترف به المسيحيون ولا يجنون مناصاً من الإقرار به يدل على أمرين:

أحدهما : أن أحد الإنجيليين لم يكن بإلهام بيقين، وإذا فرضنا أن أحدهما صادق والآخر كاذب، فالكاذب لا شك لم يكن بإلهام ، وإلا كان الإله الذي أوحى به كاذبا، وذلك لا يليق بحسب بدهاة العقل، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين حتى يثبت الصحيح، ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر، ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة إلهاما، لأن الشك إن اعترى الأصل زال الاعتقاد.

ثانيهما : أن إنجيل متى لم يكن معروفا للوقا، أي أنه لم يكن متدارسا معروفا لدى العلماء في المسيحية. مع أن تنوين إنجيل متى يسبق تنوين إنجيل لوقا بأكثر من

عشرين سنة على ما عليه جمهورهم، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه، وما وقع فى الخطأ الذي وقع فيه، أو على الأقل ما خالفه، وإذا لم يكن معروفا لدي علماء المسيحية، وحوارييها ورسلاها، فلا بد أنه لم يكن معروفاً قط، أو بعبارة أصرح، ربما لم يكن موجوداً قط.

ولا مناص من هذا إلا أن نقول أن لوقا كان يعرفه، واطلع على حديث النسب فيه، وخالفه على بيته منه، لأنه لم يصدقه، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفا برسالة متى، والإيحاء إليه، وأن ما كتبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإلا ما خالفه مع علمه.

وخلاصة القول فى ذلك أن المخالفة تنتج إحدى اثنتين : إما ألا يكون إنجيل متى معروفاً للرسول لوقا، وذلك يقتضى ألا يكون موجوداً. وإما أن يكون موجوداً يعرفه لوقا، ولكن لا يعترف به مصدراً صادق الرواية. وإحدى القضيتين لازمة حتماً، ولكن لا يعترف المسيحيون بكتبيهما .

(ب) ونجد فى الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى أنه بعد مناقشة الفريسيين تقدمت إليه امرأة، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شفاءها، ونص الخبر كما جاء فى ذلك الإصحاح : «ثم خرج يسوع من هناك، وانصرف إلى نواحي صور وصيدا». وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى ياسيدي يا ابن داود، ابنتى مجنونة جداً، فلم يجيبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها، لأنها تصيح وراءنا». وتجرى هذه القصة فى الإصحاح الثامن من إنجيل مرقس بالنص الآتى : «ثم قام من هناك، ومضى إلى تخوم صور وصيدا» ودخل بيتا وهو يريد ألا يعلم به أحد، فلم يقدر أن يختفى لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به، فأتت وخرت عند قدميه، وكانت المرأة أممية وفى جنسيتها فينيقية سورية».

فى هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية، وأنها أممية ليست من اليهود، وفى الأولى توصف بأنها كنعانية أى ليست فينيقية، فأيهما الأخرى بالقبول، لا شك أنه لا يمكن أن تكون الروايتان صادقتين معاً، بل لا بد أن تكون إحداها كاذبة وليست بإلهام من الله، لأن الله لا يكذب، وإذا كانت إحداها ليست صادقة بيقين، وكاذبة بيقين، ولم يدر أيتها الكاذبة المفتراة، فالشك إذن ملازم الاثنتين لا يفصل عنهما، حتى نتبين الصدق من الكذب، ولا سبيل إلى ذلك، ولا يمكن أن نثبت لأيهما إلهاما مع هذا الشك الملازم الذى لا سبيل إلى إزالته.

(ج) وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته فى متى عن يوحنا، ففى متى جاء فى ذلك بالإصحاح السادس والعشرين ما نصه : وفيما هو يتكلم، وإذا يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء، ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا : «الذى أقبله هو أمسكوه، فللوقت تقدم إلى يسوع؟ وقال : السلام ياسيدى، وقبله، فقال يسوع : يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا، وألقوا الأيدى على يسوع وأمسكوه» هذا ما جاء فى متى، وجاء فى يوحنا فى هذا المقام ما نصه : «فأخذ يهوذا الجند وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع، وهو عالم بكل ما يأتى، وقال لهم : من تطلبون؟ أجابوه : يسوع الناصرى، قال لهم : إنى أنا هو، وكان يهوذا مسلما أيضا واقفا معهم فلما قال لهم : إنى أنا هو ، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسألهم أيضا: من تطلبون؟ فقالوا : يسوع الناصرى، فأجاب يسوع : قد قلت لكم : إنى أنا هو، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون ليتم القول الذى قاله : إن الذين أعطيتنى لم أهلك أحدا».

وترى هنا اختلافا بينا بين الروايتين، فمتى يقول أن يهوذا أعلمهم بالمسيح بالعلامة التى اتفق معهم عليها، وهى تقبيله، ويوحنا يقول : إن المسيح هو الذى قدم نفسه وكفى يهوذا مؤونة التعريف، ولا شك أن ذلك الاختلاف البين فى رواية حادثة واحدة يجعل إحدى الروايتين كاذبة والثانية صادقة، والكاذبة ليست بإلهام، فأحدهما ليست إلهاما، ولا سبيل إلى معرفتها فيثبت الشك فى الروايتين.

وفى الحق أن من يراجع الأناجيل فى خبرها عن القبض على المسيح وحبسه، ثم محاكمته وصلبه فى زعم النصارى، ثم قيامته من قبره، يجد الاختلاف فى أخبارها اختلافا بينا، ولو كان بعض هذا الاختلاف فى شهادة اثنين يشهدان فى درهم ما ثبتت بشهادتهما دعوى. ولا انتصر بها حق.

ولترجع الأناجيل فى هذا المقام لتعرف مقدار الصحة فى خبرها، ولتعرف مقدار ما فى دعوى الإلهام لكتابتها عند كتابتها من حق، فلا شك أن ذلك الاختلاف الذى لا يمكن التوفيق بين متناقضه يؤدى إلى أن تلك الأناجيل يأتيها الشك من كل جانب، ويأتيها من بين يديها، ومن خلفها، فلا يمكن أن تكون إلهاما من حكيم حميد.

وأن ذلك الاختلاف فيما أحاط بمسألة الصلب - فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل، هو أيضا يجعل خبر الصلب عند القارئ الخالي الذهن الذي لم يكن في ذهنه قبل القراءة ما ينفية أو يثبتته موضع الشك الذي يرجح فيه الرد على القبول، والتكذيب على التصديق.

(د) وفي موت يهوذا الذي خان المسيح على زعمهم، اختلفت رواية متى عن رواية لوقا في سفر أعمال الرسل. فمتى يقول : أنه خنق نفسه ومات، كما جاء في الإصحاح السابع والعشرين.

ولوقا يقول في سفر الأعمال : أنه خر على وجهه، وانشق بطنه، فانسكبت أحشائه كلها ومات.

ولا شك أن بين الروايتين اختلافا، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن، ولا بد أن تكون إحداهما علي الأقل كاذبة، ولكنها غير معلومة، فيتطرق الشك إلى الأخرى فيردان معا، ولا يمكن أن تكونا بإلهام، أو لا يمكن - مع ذلك الشك - الإيمان بأن كليهما بإلهام.

(هـ) قد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة في التاريخ يعرفها الخاص والعام، ولذوتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة في الدهر. ولكن لم يرد لها ذكر في التاريخ. ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب.

هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تشقق، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين. وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة، وما كان، خافوا جدا، وقالوا : حقا كان هذا ابن الله.

وهذه حادثه عظيمة لو صحت لونها التاريخ العام الذي لم يشر إلى المسيح بكلمة. ولو صحت أيضا لأمن الرومان واليهود. الصخور تتشقق. والأرض تزلزل، والأموات ينشرون، ويسيروا على الأرض، ويراهم الكثيرون، ويبقى بعد ذلك مساع لإنكار، ولكن لم ترد أخبار بإيمان أحد من اليهود على أثر تلك البيئات الباهرات.

ولقد جزم العلامة المسيحي نورتن بكذب هذه الحكاية، وقال في تكذيبها: «هذه الحكاية كاذبة والغالب أن أمثال هذه الحكاية كانت رائجة

فى اليهود بعد خراب أورشلیم، فلعل أحدا كتب هذه الحكاية فى النسخة العبرانية، وأدخلها الكتاب فى المتن، وهذا المتن فى يد المترجم فترجمها كما وجدها».

ونقول : لعل كثيرا مما فى المتن أصله فى الحاشية ثم نقل خطأ فى المتن، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم وإيمان بدين، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأصيل، هو بإلهام من الله العلى القدير؟.

ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك.

بيد أنه من الإنصاف لهذه العقول أن نقول : إنهم يقيمون غواشى تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيها، فهى لا تقبله على نور وبيينة، وسلطان مبین.

٥٩ - هذه بعض المتناقضات بين هذه الكتب بعضها مع بعض ، وبعض مناقضتها للعقل والممدون فى التاريخ، وإنما نحيل القارئ فى هذا المقام إلى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهنذى : فقد أتى بأكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب، وجبه بها مناظرية، فلم يحيروا جوابا، ولم يستطيعوا خطاباً، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها منه فليرجع القارئ إليه، فسيجد الغريب.

التناقض بينها مبطل لادعاء الإلهام. وبيان إنكارهم لبعضها ثم اعترافهم به :

وإذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها فى جملتها وأجزائها عند مناقشتها فهى إذن ليست بإلهام، ويكفى هذا بطلاناً لدعاهم فى الإلهام.

وأن نسبة هذه الكتب إلى من نسبت إليهم على ما فيها، وعلى أنها فى ذاتها ليست حجة، هى موضع شك كثير، فإنه ليس لهم سند متصل يصل هذه الكتب فى أقدم العصور التى عرفت فيها - بالكاتبين لها، فهى لم تعرف معرفة كاملة قبل مجمع نيقية الذى كان فى سنة ٣٢٥ م. ولم يجرى ذكر لها قبل ذلك إلا على لسان أرينيوس سنة ٢٠٠ وكليمنس سنة ٢١٦.

بل إن مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها، فإن ذلك المجمع لم يعترف بما يأتى :

١- برسالة بولس إلى العبرانيين.

٢- رسالة بطرس الثانية.

٣ ، ٤ - رسالة يوحنا الثانية والثالثة.

٥- رسالة يعقوب.

٦- رسالة يهوذا.

٧- رؤيا يوحنا التي تسمى «الكتاب النبوي».

ولم يحكم بصحة هذه الكتب إلا في مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤.

اتقطاع السند في نسبتها لكاتبها :

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس. وآخر كتاب من هذه الكتب كتب في القرن الأول، فبين آخر كتبهم تنوينا في زعمهم، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين لاروى يرويه، وقد وقع بهم من الأحداث في هذه المدة ما يذهب باللب ويضيع الرشد، وينسى المرء معه كل شيء؛ وأن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد. فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة ٣٠٣ أمراً بهدم الكنائس وإحراق الكتب، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم، فنفذ الولاة الأمر، فهدموا الكنائس، وحرقوا الكتب، وأتوا على ما كان للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب، هدموا وتحريقاً، ومن سبق إلى ظنهم أنه أخفى كتاباً عذبه عذاباً شديداً، حتى يعلنه فيحرق.

ومن قبل ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم، فما تركوا عالماً منهم بالديانة إلا قتلوه، وكان الولاة يتفنونون في طرق إبادة المسيحية من الوجود، أبادوا العلماء حتى لا يوجد من يرشد إليها، ويتوارث العلم بها. وأبادوا الكتب حتى لا تحفظ تلك الديانة في الصدور أو السطور.

ولا شك أن ذلك الاضطهاد الذي دام إلى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التي رويت قبل ذلك موضع شك نى نسبتها إلى قائلها، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة، ولم يقيموا أى دليل، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب إليهم، والحبلى بينهم وبينها غير

متصل بأهوى أنواع الاتصال، لأن السند المتصل الذي يطمئن معه القارئ لكتاب، فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن تنسب إليه، وهو أن يروى ثقة عن ثقة مثله حتى يصل السند إلى من لقي المؤلف فيقول : سمعته منه، أو تلقيته عنه، أو قرأته عليه، كما ترى في أحاديث رسول الله ﷺ . ويكون كل راوٍ من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلاً ثقة، ضابطاً حافظاً، وإذا كان السند غير متصل بين ذبوع هذه الكتب واشتهارها، وبين قائلها، فقد ذاعت بعد سنة ٢٦٤، ومن نسبت إليهم كتابتها كانوا في وسط وآخر القرن الأول، فالعقل يتشكك في هذه النسبة، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة.

هذه كتبهم، اعتقدوا أنها كتبت بإلهام من كتابها، ولم يقيموا أى دليل على دعوى الإلهام، وبدراستها يتبين التناقض بينها، مما يثبت أنها ليست بإلهام من الله، وبدراسة تاريخها يثبت أنها منقطعة السند عن نسبت إليهم.

موازنة قس بين أحاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية :

٦٠ - ولقد جرؤ قس اسمه إبراهيم سعيد في شرحه لإنجيل لوقا، فعقد موازنة بين روايته، ورواية أحاديث رسول الله ﷺ، فقال : «إن الذى يطالع ديباجة لوقا يستعيد إلى ذاكرته ديباجة الأحاديث في الإسلام، غير أنه إذا تشابهت الديباجتان في بعض الأوجه، فإن أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه، فمن أوجه الشبه :

(١) أن بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة، وأقوال مؤسس لدين واسع الانتشار.

(ب) أن الذين كتبها أخذوها عن أقوال مسلمة إليهم.

إلى هنا فقط تنتهى أوجه الشبه، أو تبتدئ زاوية الانفراج تتسع إلى أن تختفى خطوطها مع رسوم الأبد.

(أ) فالأحاديث النبوية كتبها أناس أخذوها عن أناس آخرين، هؤلاء الآخرون أخذوها عن التابعين، وهؤلاء أخذوها عن الصحابة، والتبر متى تنقل بين الأيدي الكثيرة امتزج بكثير من التراب، إن لم يتحول تراباً، ولكن لوقا أخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح، وخدموا إنجيله .

(ب) نقلت الأحاديث النبوية عن رواة، وما أفة الأخبار لإرواتها، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

(ج) كانت مهمة كتابة سيرة نبي الإسلام جمع الأحاديث وتكديسها، لكي يظفروا
بأكبر عدد ممكن، وكانت مهمة لوقا التمهيم العلمى إذ كان هو طبييا عمليا، علميا دقيقا .

بيان ما فى كلامه من زيف :

٦١ - هذا نص ما كتبه ذلك القس فى الموازنة بين أحاديث الرسول ﷺ وإنجيل
لوقا، ونحن نقره فى أن أوجه الاختلاف تتفرج زاويتها، حتى لا يتلاقى المتشابهان بعدها،
وإن شئت الحق الخالص من كل تمويه، والصدق الخالى من كل تزوير، فقل أنه لا تشابه
بينهما، كخطين متوازيين لم يتلاقيا، وإن يتلاقيا قط .

ولكن أذلك الاختلاف يعلى الأحاديث أم يعلى البشارة المنسوبة للوقا؟ هنا نختلف مع
القس . فهو يزعم أن الاختلاف يعلى بشارة لوقا، ويفقد الثقة فى أحاديث الرسول، وهو
لكى يؤيد هذا الزعم يأتى بالمحاسن فيسميها مساوى، ويعرض لما يوجب الثقة فيزعمه دليل
نقيضها، وهو فى هذا كمن يزعم قبح الشمس فى نورها الرائع، وضوئها الساطع، وقبح
القمر فى صفائه، وانبلاجه فى ظلمة الليل البهيم، ثم يستعين فى تقبيح المحاسن إلى
التشبيهاة والأخيلة والرموز، كشأن الموهين دائما، عندما يحاولون طمس المعقول ورد
المقبول، ومعارضة ما تنتجه بدائه العقول، والمنطق المستقيم .

يقول إن الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا إلى التابعين، فالصحابة.
وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا، ويرى أن رواية بشارة لوقا هى المثلى، ورواية
الأحاديث ليست المثلى، ويستدل على ذلك بأن التبر متى تنقل بين الأيدي امتزج بالتراب أو
تحول إلى تراب، فأى دليل هذا؟ ومن أى أبواب الأقيسة المنطقية، ومن أى أشكالها؟ إن
ذلك ليس من المنطق فى شئ، ولا يمت إليه بنسب، بل لا نستطيع أن نقول أن ذلك قياس
خطابى، لأن الأقيسة الخطابية، وإن كانت ظنية لا تناقض العقل، ولا تكذب على البدائه، ولكننا
مع ذلك نناقش ذلك الاستدلال .

إن أحاديث الرسول رويت بسند متصل، وذلك عيبها فى زعم هذا الكاتب، وبشارة
لوقا لم ترو بسند متصل، وذلك حسنها، وإذا قال قائل : أين ما تثبت به أنه روى عن شهود
عاينوا، ومن هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين، وهم أولى بذلك،
وكلامهم أحرى بالتصديق؟ فلا جواب عنده بلا ريب .

فأيتها العقول المستقيمة، أي الخبرين أحرى بالقبول، خبر من ذكر أنه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق والتقوى، وعينه، وعدالته مشهورة، وصدقه معروف. أم خبر من ذكر لك أنه روى عن عمن عاين ولم يبين من هو، ولم يخبر عنه. فلم نعرف أهو ثقة مقبول الرواية أم هو غير ثقة كيهودا الأسخريوطي؟ إن أقصى ما يقال هو أن لوقا نقل عن بولس، لأنه كان رفيقا له في بعض أسفاره، ولكن بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا بل كان في صدر حياته حربا عليهم وإلبا، أذاقهم البلاء أكوسا، والشر ألوانا، فهو راو يحتاج إلى من يوثقه إن ادعى أن لوقا روى عنه، وذلك ما لم يقله حضرة القس.

ولنتقل إلى مناقشة تشبيهه الذي ذكره دليلا : إن التبر إذا انتقل إلى أيد تستطيع صيانته وحياطته - تحفظه من التراب، وتصونه من الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخالط جوهره، فيزداد بهذا الحفظ بريقا وصفاء، إن أحاديث الرسول نقلها ثقات صانوها وحفظوها، ولكن يظهر أن القس يأبى في مناقشته إلا أن يخالف كل معقول، حتى يكون كل كلامه متفقا مع الباعث عليه والداعى إليه، فيزعم أن التبر قد يتحول إلى تراب إذا تناقلته الأيدي.

فأيها الناس، وأيها العرب والعجم، وأيها الشرق، وأيها الغرب، هل علمتم أن الذهب يتحول إلى تراب، ولكن القس المرشد الرشيد يقول ذلك فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة.

ثم من الذي روى لنا تلك البشارة عن لوقا؟ إن السند يجب أن يكون معروفا حتى لوقا، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح، إن بشارة لوقا كتبت كما يزعم النصارى في العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعيينا دقيقا، ولكن لم يرد في التاريخ، ولا على ألسنة الرؤساء والقسيسين أي ذكر لها إلى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٢٢٥ ولم نعرف أهذه الأناجيل المدونة المسطورة الآن هي التي جاء ذكرها على لسان عالمن من علمائهم في فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون سنة وثلاثمائة، وهي فترة طويلة.

ولكن مع كل هذا يستحسن القس إبراهيم سعيد تلك الحال، فقد زينت له فرأها

الأمر الحسن الجدير بالثقة. ورأى غيرها الأمر القبيح الجدير بالرد. هل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه فى ضوء الشمس، أو نطالب من فقد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر،. وعرف الطيب، أو نطالب من إيفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور.

٦٢- ولنتنقل إلى الفرق الثانى الذى ذكره معليا لبشارته، ومنزلا بأحاديث نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : نقلت الأحاديث عن طريق رواة، وما آفة الأخبار إلا رواتها، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم.

هذا ما ذكره بنصه تقريبا، وهو يبين أرجحية أخبار أناجيله عن سيرة المسيح بأنها رواها التاريخ، أما عن السنة فرواية رواة، وآفة الأخبار رواتها، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامة التافهة «آفة الأخبار رواتها» فإنها لا تصلح مقدمة لدليل ولو أن طالبا ممن تلقوا العلم علينا قالها لعركنا أذنه وأسررنا إليه أن رواة الأخبار الذين هم آفاتنا إنما هم الكاذبون. أما الصادقون العادلون، فليسوا آفاتنا بل حملتها، وإلا ما صحت شهادة، ولا قبل القضاء بينات، ولا ثبتت حقوق، ولا أدين متهم، ولا برئ برئ.

ثم يقول أن أناجيله سجلها مؤرخون محققون، فكيف نسميهم؟ أرواة رروا عن غيرهم؟ إن كانوا كذلك، فقد سجل على سيرته ماعده قبيحا عند غيره، وإن كانوا مؤرخين لم يتعرفوه بطريق الرواية، بل بالنقش على الأحجار، أو فيما استبطنته بطون الآثار، فأى أثر هذا الذى وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه، ومدونة فيه، وأثبت التحقيق العلمى أنها ترجع إلى عصر المسيح، وأنه الذى ألقاها، أو أن تلاميذه بنوها عنه؟

إن أخبار التاريخ تثبت بأحد أمرين، إما بالرواة يروون، أو بالآثار ينقبون فيها، ويتعرفونها منها، لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين، فليست ثمة رواية لها ولا رواة، وهم ينزهونها عن ذلك، ولا آثار تنطق بها، وتعلن خبرها فهى إذن يرفضها التاريخ، ولا يمكن أن يسجلها مؤرخون محققون قط، وأن التاريخ لا يعرف لها ذكرا إلا من مجتمع نيقية أو بعده. فهى مسندة إلى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا فى نيقية، وليست محققة النسبة لغيره، بل بعضها ليس محقق النسبة عندهم، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة!. وبعد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم، وإن أغضب ذلك حضرة القس، وأن ذلك المجمع لنا فيه كلام، سنقوله فى موضعه.

٦٣ - وانتقل إلى مناقشة الفرق الثالث الذي ظنه رافعا مؤرخيه إلى مرتبة الثقة،

يقول : كما كانت مهمة كتبة سيرة النبي ﷺ الجمع، ليظفروا بأكبر عدد من الأحاديث. أما مهمة لوقا، فقد كانت التحقيق والتحصيص، وهنا نرى القس أخذ يجد بعد الهزل، ويقول بعد الهذر، ولكنه إذ ابتدأ يجد قد كذب وأعظم الفرية على أحاديث نبينا، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها، فأى تحقيق علمي فيها، وأى تحصيل اشتملت عليه؟ إنها لا تفتقر عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة؟ وأشياء عجيبة، ولم تبين لنا رأيه فيها، بل كان قاصداً ككل القصاص، ولا يرفعها أنه كان طبيبا، لأن نسبتها إليه موضع شك كبير، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا، ولم يتفقوا على أنه كان طبيبا، بل منهم من قال أنه كان مصورا، وعلى ذلك تكون دعواه التحصيل في بشارة لوقا لا يؤيدها ماون فيها، ولا تؤيدها نسبتها إلى لوقا.

وانتقل بعد ذلك إلى رد افتراءه، وكذبه على أحاديث النبي ﷺ، فإن المطلع على أخبار روايتها العدول، وما كتب في صحاحهم يتبين له أنهم ما كان همهم الجمع، بل كان همهم التنقيب والبحث، فإنهم ما كانوا يروون كل ما يتلقون، بل يختارون الصادق مما يتلقون، وأن الذي يرفضون كان أضعاف ما يقبلون وينقلون، لأنهم كانوا يتحرون الصدق ليميز الخبيث من الطيب، وأن الصحابة كانوا يتهمون من يكثر من الرواية خشية أن يخبر عن الرسول بغير ما رأى وشاهد، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم، أو محرفا الكلم عن مواضعه : «إن رواية الأحاديث كان همهم الجمع»، كلا إنهم كانوا ينقدون ما يروون، ينقدون السند أولا، فلا يقبلون إلا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم لما يحملون ويروون، وينقدون متن الحديث، فيعرضونه على الكتاب وما اشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار، وما علم من هذا الدين بالضرورة، فإن لم يخالفها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولا، وإلا كان مردودا. ونريد أن نهمس في أذن حضرة القس الرشيد بأن من أسباب ردهم لبعض الأحاديث ورفض نسبتها إلى الرسول ﷺ عدم موافقتها العقل، فهل له أن يطبق ذلك النقد على أنجيله ورسائله؟ إنا ننصح له أن يفعل، لأننا نريد له الهدى، لا الضلال، والرشد لا الغي، وهي نية نحسبها عند الله.

نظرة في الوحي في الإسلام والوحي في المسيحية :

٦٤ - نريد أن نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها. وهي التفرقة بين

الوحي في الإسلام والوحي في المسيحية. فيقول عن الوحي في الإسلام : «إن الوحي في

الإسلام هو التجريد عن كل شئ إنسانى وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ. ولكن الوحى فى المسيحية يجمع بين العنصر البشرى والعنصر الإلهى، أى الملهمات الإلهية تتجسد فى لباس لغوى بشرى، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم، فالكلمة المعلنة المكتوبة فى الإنجيل هى رمز لكلمة الله، الوحى المعلن لنا عن الله.

من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحى بالروح القدس لا يحرم على الموحى إليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم، ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد، والتحقيق والتدقيق، هذا بخلاف الإعلانات المحتوى عليها كتاب الوحى التى لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية، بل هى من الله أولاً وأخراً، كالنبوءات المنفردة فى كل أجزاء الكتاب المقدس، وسفر الرؤيا.

معنى الوحى :

هذه كلمته، ونريد قبل أن نتعرف من تلك الكلمة معنى الوحى فى كتبهم أن نسارع إلى بيان وحى الله لنبيه ﷺ فى الإسلام فنقول : إن وحى الله تعالى لنبيه ﷺ قسمان: قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله جلت قدرته، وذلك كما فى القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين.

القسم الثانى : الأمور الشرعية التى كان يوحى الله بها إلى النبى ﷺ ليبينها للناس، فالمعنى فيها بوحى من الله تعالى، والعبارة فيها للنبى ﷺ .

وإذن فكلامه عن الوحى فى الإسلام لم يكن صحيحاً فى عمومه، وكان عليه أن يتحرى قبل أن يكتب، ولكنه لم يفعل.

ولنتقل إلى الوحى بالكتب عندهم، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به عنه، وعساه يهديننا إلى ما نعرف به محض الحق المبين.

هو يقول أن كلمات الإنجيل ليست هى كلمات الروح القدس التى ألهمها رسلهم، سواء فى ذلك كل كتبهم، فالعبارة فيها للكاتب، وليست للروح القدس الذى يلهم رسلهم بما يكتبون فيما يزعمون، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك إلى قسمين : قسم هو وحى لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأى نوع من أنواع التصرف، وهو ما يسمى بالنبوءات

عندهم. والقسم الثاني تتصرف فيه مواهب الكاتب، وفي هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجبه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد.

ونظرة فاحصة إلى هذا القول ترينا أن الإلهام قد أخذ يضؤل أمره، وتتواضع دعواه، وخصوصا بالنسبة للأناجيل، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا، ولم يتخللها كلام الله، كما يفعل بولس في رسالته، إذ كان يزعم أحيانا أنه يتكلم عن الله، وأحيانا يقول أنه يتكلم من عنده، فالأناجيل ليست فيها إذن تلك النبوات، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل في كتابتها، ويتحملون تبعه الاجتهاد فيها والتدقيق والتمحيص، ومن يتحمل تبعه عمل ينسب إليه. وعلى ذلك قد يتوارد الخطأ على اجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم، فيكون من أخبارهم ما صادف التحقيق فيه الصواب، وما عرض له الخطأ، وكيف تكون بعد ذلك بالإلهام أو وحى؟ وكيف تكون مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؟ وإذن فقد أتوا على دعوى الإلهام بالنقض فلا إلهام في الأناجيل إذن.

هذه كلمتنا في كتبهم تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون، ونوجه من النقد ما وجهوا، وذلك لكي ننصف القوم.

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة، ونجمع بين الأقوال المتضاربة، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها، أهي صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم، أم غير صالحة؟

إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس، فإذا كان غير صحيح السند أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر، بل إنه انهار، وفقد أصله ولم يعد شيئا في الأديان المذكورا.

ولنتقل بعد ذلك إلى عقيدة المسيحيين، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التي علمت أمرها.

النصرانية كما هي عند النصارى وفى كتبهم

العقيدة:

٦٥ - جاء في كتاب سوسنة سليمان، لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن «عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى، هى الإيمان بإله واحد، أب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد، ويسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ والذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، تأتس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتآلم وقبر، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على مافى الكتب. وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتى بمجد، ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه، والإيمان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب، الذى هو مع الابن يسجد له ويمجد، الناطق بالأنبياء».

هذا هو جوهر العقيدة ولبها الذى لا اختلاف فيه، وفى هذا الكلام إيهام يحتاج إلى فضل بيان، وإنا مستعينون فى توضيحه بما كتبوه هم حتى لا نتزيد عليهم بقول، ولا نفرض عليهم فهمنا، ولكى نكون صادقى الحكاية لكل أقوالهم من غير أى تحريف، والذى يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : التثليث والإيمان بثلاثة أقانيم.

والعنصر الثانى : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره، ورفع.

والعنصر الثالث : أنه يدين الأحياء والأموات.

ولنتكلم كل عن واحد من هذه العناصر.

عقيدة التثليث :

٦٦ - قال الدكتور بست فى تاريخ الكتاب المقدس : «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة

أقانيم متساوية : الله الأب ، والله الابن، والله الروح القدس، فبالى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير .»

ويفهم من هذا أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق.

التوراة والتقليد.

وقد فسر هذا المعنى القس بوطر فى رسالة صغيرة، سماها (الأصول والفروع) وإليك ما جاء فيها : «بعد ما خلق الله العالم، وتوج خليقته بالإنسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدانيته، كما يتبين ذلك من التوراة، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية، لأنك إذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات :

«كلمة الله، أو حكمة الله، أو روح القدس» ولم يعلم من نزلت عليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعانى، لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذى قصد الله فيه إيضاحها على وجه الكمال والتفصيل، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد، إذ يجدها تشير إلى أقانيم فى اللاهوت، ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة فى الإنجيل أن له نسبة سرية أزلية إلى الله، تفوق الإدراك، وتراه مسمى فى أسفار اليهود : «كلمة الله» وهى ذات العبارة المعلنه فى التوراة، ثم لما صعد إلى السماء أرسل روحاً، ليسكن بين المؤمنين، وقد تبين أن لهذا الروح أيضاً نسبة أزلية إلى الله فائقة، كما للابن، ويسمى الروح القدس، وسر ذات العبارة المعلنه فى التوراة كما ذكرنا، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران فى الإنجيل، فما لمحت إليه التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح، وأن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم، وكل من أثار الله ذهنه وفتح قلبه وفهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية، بل لابد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين فى الكمالات الإلهية، وممتازين فى الاسم والعمل، الكلمة والروح القدس اثنان منهم، ويدعى الأنتوم الأول الأب، ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها، وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية، ويمثل للأفهام محبته الفائقة، وحكمته الرائعة، ويدعى الأنتوم الثانى الكلمة، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس، ويدعى أيضاً الابن، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة، والوحدة بينه وبين أبيه، وطاعته الكاملة لمشيئته، والتمييز بين نسبته هو إلى أبيه، ونسبة كل الأشياء إليه، ويدعى الأنتوم الثالث الروح القدس، الدلالة على النسبة بينه وبين الأب والابن، وعلى عمله فى تنوير أرواح البشر، وحثهم على طاعته».

الابن لا يعنى به الولادة البشرية :

وبناء على ما تقدم يظهر جلياً أن عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية، ولكنها تصف محبة سرية فائقة بين أقنوم وآخر فى اللاهوت الواحد، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة فى الذات، والأمانة للمشورة الإلهية، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها، لأجل هذه الإيضاحات علم خدام الدين المسيحى واللاهوتيون حسب ما قررتها الكلمة الإلهية أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم، حسب نص الكلمة الأزلية، ولكل منهم عمل خاص فى البشر. انتهى بنصه تقريباً.

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات :

أولها : إثبات أن التوراة وجد فيها أصل التثليث، لوحث به ولم تصرح ، وأشارت إليه، ولم توضح.

وثانيها : أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم، وهى فى شعبها متغايرة وإن كانت فى جوهرها غير متغايرة.

وثالثها : أن العلاقة بين الأب والابن ليست ولادة بشرية، بل هى علاقة المحبة والاتحاد فى الجوهر.

ولقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان فى قول القس إبراهيم سعيد فى تفسير بشارة لوقا، فقد جاء فيه فى تفسير معنى كلمة ابن العلى التى جاءت فى إنجيل لوقا مانصه : يلىق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد «بابن العلى» أو «ابن الله» فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا لقال ولد الله، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعاً أنهم أبناء الله، لأن نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها تفرقه فى المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا فى الجوهر، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله، وهى محبة متبادلة، وما المحبة التى بين الأب والابن الطبيعيين سوى أثر من أثارها، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله، وأطاع وصاياه، فقبل الموت موت الصليب، لذلك يقول الله فيه : «هذا ابنى الحبيب الذى به سررت، له اسمعوا» وقد

تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تم إرادة الله في الفداء، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات، وفي الجوهر، كما يكون بين الأب والابن الطبيعيين، فقليل عن المسيح أنه بهاء مجد الله، ورسم جوهره، وقال هو نفسه : من رأني فقد رأى الأب، أنا والأب واحد، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شئ الذي منه وبه وله كل الأشياء، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل.

الثالث أشخاص متغايرة وإن كان وجودها متلازماً :

٦٧ - وفي هذا التفسير، والتفسير الذي سبقه يبدو بجلاء أن شخصية الابن غير الأب، وكذلك روح القدس، ولكن هل يدخل في الأقسام الثاني جسده وروحه؟ جاء في كتاب خلاصة تاريخ المسيحية في مصر : «كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس وديستوروس. ومعها الكنائس : الحبشية، والأرمنية والسريانية والأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الأقسام. أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، ومن مريم العذراء، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشية واحدة».

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثاني طبيعتين ومشيتين، ومن هذا نرى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث، وهذا هو موضع اتفاق، ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الإلهي في المسيح، أهو الجسد الذي تكون من الروح القدس ومن مريم العذراء الذي باختلاطه بالعنصر الإلهي صار طبيعة واحدة ومشية واحدة أم أن الأقنوم الثاني له طبيعتان ومشيتان؟.

٦٨ - ومن هذا كله يفهم أن المسيحيين علي اختلافهم يعتقدون أن في اللاهوت ثلاثة يعبدون، وعباراتهم تفيد بمقتضاها أنهم متغايريون وإن اتحدوا في الجوهر والقدم، والصفات، والتشابه بينهم كامل، ولكن كتابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعاً أقانيم لشئ واحد، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية، ولكن عند هذه المحاولة تستغل فكرة التثليث، وتصير بعيدة عن التصور ، كما هي في ذاتها مستحيلة التصديق، وأن كتابهم أنفسهم يعتقدون أنها بعيدة التصور عند هذه المحاولة، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث.

فترى صاحب رسالة الأصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث، يقول : «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، نرجو أن نفهمه أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الأرض، وأما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية» أى أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلى كل الأشياء لها يوم القيامة، وذلك حق، فإنهم لا يعلمون حقيقتها إلا يوم يحاسبهم الله عليها.

لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث :

ولماذا شغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث، أو على الأقل يجتهد بعضهم فى بيان أنه لا منافاة بينهما؟ لعل الذى يدفعهم إلى ذلك هو اعتبارهم التوراة كتاباً مقدساً عندهم، وهى تصرح بالتوحيد، وتدعو إليه، وتحت عليه، وتنتهى عن الشرك بكل شعبه. وكل أحواله، بل تدعو إلى البراءة من المشركين أينما كانوا، وحينما ثقفوا.

فهم يجتهدون أولاً فى أن يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه على الإشارة إلى التثليث، كعبارة «كلمة الله» أو عبارة «روح القدس».

وثانياً : يحاولون أن يرجعوا التثليث إلى الوحدانية، لتلتقى التوراة مع الإنجيل فيقربوا التوراة إليهم بتحميل عباراتها ما لا تحتمل، ويقربوا عقائدهم من التوراة بتضمين ثالوثهم معنى التوحيد، وإن كان هو أيضاً لا يحتمل ذلك، ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التى كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام، ووثنية الرومان، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لا شية فيها، إلا التجسيد، أو ما يوهمه فى بعض عباراتها.

٦٩- ولقد يجتهد كتاب المسيحية فى إثبات أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة، ويسندونها إلى آياتها، سواء أكانت من كتب العهد القديم، أم من كتب العهد الجديد، فيقول صاحب كتاب الأصول والفروع : «أما الآيات الإلهية التى تثبت لاهوت المسيح فهى كثيرة جداً، ولضيق المقام نكتفى باقتباس شئ يسير، فمن أقواله تعالى بلسان أشعيا النبى: «ها العذراء تحبل، وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانوئيل (أى الله معنا)» وقوله : «كأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه : ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً إليها قديراً، أبا أبدياً رئيس السلام» : أشعيا ٧ : ٩٤، ٩٦ : ٦ - .

وعند عماده وتجليه على الجبل شهد له من السماء بصوت مسموع قائلاً : «هذا هو
ابنى الحبيب الذى به سررت» متى ٣ : ١٨ ، ١٧ أ ص ٥ .

ويشهد له يوحنا الرسول قائلاً : فى «البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان
الكلمة الله .. كل شئ به كان. وبغيره لم يكن شئ؛ والكلمة صار جسداً وحل بيننا، ورأينا
مجده مجداً، كما للوحيد من الأب مملوفاً نعمة وحقاً» يوحنا ١ : ١ ، ٣ ، ٤ .

وقال المسيح نفسه : أنا والآب واحد، يوحنا . ١٠ : ٣٠ . وقال له أحد تلاميذه : «رى
والهى » يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود. ولم يوبخه على دعوته إليها، ولما سأله رئيس
الكهنة، وقال له : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله؟ أجابه المسيح
على الحلف: قال «أنا هو» متى ٢٦ : ٢٦ مرقس ١٤ : ٦٢ ، «وحينما ركب بحر الجليل أظهر
طبيعته لاهوته وناسوته الكليتين، وذلك بينما كان نائماً هاجت الرياح، واضطربت الأمواج،
فقام من النوم وأسكتها. فصار هدوء عظيم، متى ٨ : ٢٣ - ٢٧ فبنومه أظهر ناسوته،
وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته».

ويقول صاحب ذلك الكتاب فى أقنوم روح القدس : «ومن حيث أقنومية الروح
القدس فظاهر من كلمة الله، لأن أشعياء يقول : «ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه،
فتحول لهم عدوا، وهو حاربيهم»، أشعياء ٦ : ١٠ .

ويقول الرسول بولس : لا تحزنوا روح الله القدس، ومن المعلوم أنه إن كان للروح
قوة، أو شئ من الأشياء غير العاقلة لا يمكن أن يحزن، أو يفرح أبداً : فلا بد أن يكون
أقنوماً.

ثم نقرأ فى سفر الأعمال أن الروح قال للرسول : «أفرزوا إلى برنابا وشاول للعمل
الذى دعوتهما إليه».

وهكذا يسترسل فى أمثال هذا الاستدلال إلى أن يقول : «وقيل عن أعمال الله أنها
أعمال الروح هو الذى خلق العالم، ويحدد النفوس، والمولود منا مولود من الله، ويحيى
أجسادنا الميتة، وهو على كل شئ قدير».

وفضلاً عما ذكر نجد فى الكتاب أن الحقوق والصفات الإلهية تنسب على سواء إلى
كل من الآب والابن والروح القدس.

ولكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون، كما نرى فى دستورية المعمودية :
«عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس». متى ١٨ : ١٩، «والبركة الرسولية نعمة ربنا
يسوع المسيح، ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم».

٧٠ - هذه هى استدلالاتهم من كتبهم لإثبات عقيدة التثليث، والإبراء عليها، وإثبات
سندها من تلك الكتب، قد أطلنا فى نقلها عنهم، واقتطعناها من عباراتهم بنصها، ولم
نتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرف فى البيان خشية التزيد عليهم، وخشية أن يؤدى
التصرف فى التعبير إلى التغيير فى الفكرة، وترى أنهم لم يعتمدوا فى إثبات تلك العقيدة
على أى دليل عقلى، بل كل اعتمادهم على ما عندهم من نقل يحملونه من أفعال المعانى
ما تنوء به العبارات، ولا تحتمله أبعد الإشارات، وأنهم إذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث
بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها فى تصور، ويحسون أن العقل
لا يكاد يستسيغ ذلك التصور، وقد نقلنا لك عن عباراتهم ما يفيد ذلك، فارجع إليه.

وإذا كانت محاولاتهم تصور القضية قد أجهدتهم، وكلفتهم مالا يطيقون، فكيف
يستطيعون أن يجعلوا من بدائه العقل ما يحمله على تصديق ما يدعون والاعتناع بما
يقولون، لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا إلى العقل لإثبات قضيتهم من بدهيات، فإن ذلك ليس
فى قدرة أحد، إذ ليس فى قدرة أحد من البشر جمع النقيضين فى قرن، والتوفيق بين
الأضداد، وقضيتهم والبدهيات العقلية نقيضان لا يجتمعان.

ونرى أن اعتمادهم على النقل لا يغنى من الحق شيئاً، لأن شروط الإنتاج فى
استدلالهم غير مستوفاة، إذ ترى أن تلك العبارات التى عثروا عليها فى كتبهم لا تفيد على
وجه القطع ما يريدون، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات، أو باحتمال قريب، ومن المعلوم
فى قواعد الاستدلال أن الاحتمال إذا دخل الاستدلال أبطله، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال
إليها من كل جانب. هذا وإن الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها وهى ذاتها يعرفها النقد
العلمى فى سندها، وفى متنها من كل ناحية، فهى فى ذاتها فى حاجة إلى دفاع طويل
لإثباتها، وقد بينا ذلك كله فى موضعه من بحثنا.

صلب المسيح فداء عن الخليقة :

٧١ - ولنترك الآن الحديث فى عقيدة التثليث، ولكن يجب قبل تركها مؤقتاً أن نشير
إلى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية، بل توردها عليها شيئاً فشيئاً، إلى أن أعلن

نهائياً عند غالبيتهم فى نهاية القرن الرابع الميلادى، وسنين ذلك كله فضل بيان فى موضعه من هذا البحث، ولنتكلم الآن فى العنصر الثانى من عناصر العقيدة المسيحية، وهو صلب المسيح فداء عن الخليقة، وقد أشرنا إليه إجمالاً من قبل.

يقولون فى هذا : أن الله من صفاته المحبة، حتى لقد جاء فى الكتب المقدسة عندهم: «الله محبة» ومحبة الله ظهرت فى تدييره طريق الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم، وقد جاء فى إنجيل لوقا : «وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب، ويخلص ما قد هلك» فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص، لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى، وبين عدله ورحمته، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوه، ولكن باقتران العدل بالرحمة، ويتوسط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصلب، لهذا صلب، ورضى الله عن صلبه، وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره، ويقولون أنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه.

جاء فى إنجيل متى فى الفقرة التى بعد بيان الصلب : «اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : ياسيد، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى أنى بعد ثلاثة أيام أقوم، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث، لئلا يأتى تلاميذه ليلا، ويسرقوه، ويقولوا للشعب أنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشد من الأولى، فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس، اذهبوا، واضبطوه كما تعلمون، فمضوا وضبطوا القبر بيد أن ظهوره كان بين تلاميذه».

وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت أناجيلهم، ولكنها اختلفت فى تفصيل القيام، فمتى ذكر أنه ظهر فى الجليل، ولوقا ذكر أنه ظهر فى أورشليم، ويوحنا ذكر أنه ظهر فى اليهودية والجليل معاً، ومرقس بين أن ظهوره كان بين تلاميذه.

وقد ذكر القس إبراهيم سعيد توفيقا بين هذا الاختلاف فقال : «أجمع البشيريون الأربعة علي تقرير هذه الحقيقة. ليس المسيح في القبر، لأنه قام كما قال، ولكن كلا منهم كتب عن القيامة وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة، متى كتب عن ظهور المسيح في الجليل، لأنه كتب عن المسيح الملك، ولوقا كتب عن ظهوره في أورشليم، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئا من أورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره في اليهودية والجليل لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدى صخر الدهر. ومرقس كتب عن ظهور المسيح للتلاميذ في فترات متقطعة، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التي تنتظرهم، لأنه كتب عن المسيح الذي جاء ليخدم البشرية، ويرفعها إلى مستوى الكمال، كل هذا لكي يوقع البشيريون الأربعة نعمة مشعبة متنوعة العناصر لأنشودة القيامة المجيدة فلئن تنوعت روايتهم إلا أنها لا تتناقض».

وهذا أشبه بالتعلات التي لا تناقش، ولا تقوى أمام النظر المنطقي المستقيم، ولكنها تقبل في الخطابيات، فهي كالزهرة ترى وتشم، ولكن لاتعرك، وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين:

إحدهما : أن كل إنجيل كتب لغرض معين لا يشمل في عمومه ما كتب له الإنجيل الآخر.

وثانيهما : أن كلا ذكر المكان الذي يتفق مع غرضه، وإذن فلا اختلاف في الخبر.

وهذا الكلام فيه نظر في مقدمته ونتيجته، وذلك لأنه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك، ولوقا عن المسيح المخلص، وهكذا، لكان كل إنجيل مغايرا للأناجيل الأخرى تمام المغايرة، مباينا له تمام المباينة، لأنه يكتب في موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر، وإن كان الشخص واحداً، كأن يكتب كتاب عن شخص بارز في السياسة والقانون. فكاتب يكتب عنه سياسيا، وآخر يكتب قانونيا، فالموضوع يختلف، وإن كان الشخص متحدا، ولكننا لا نجد في الأناجيل في مجموعها ذلك التباين، وعلي فرض تسليم تلك القضية لا نستطيع أن نسلم القضية الثانية، وهي أن الجليل يناسب المسيح الملك، وأورشليم تناسب المسيح المخلص، وهكذا . فلماذا اختصت هذه بالملك وتلك بالخلص ؟ إن ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق. وعلى فرض صحة المقدمتين فإن النتيجة لا تنبئ عليهما، لأن النتيجة

اختلاف ذكر الأمكنة في حادثة معينة والشهادة بها، فأحد الشهود يقول : أنه رآه في الجليل، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ في فترات متقطعة، وثالث يشهد بوجوده في أورشليم، وإذا اختلف الشهود في مكان حادثة معينة كان اختلافهم سببا للظنة في الشهادة واتهام الشهود فيها، ولئن قيل أن المسيح ظهر في الأمكنة التي ذكرت، بيد أن كلا ذكر ما رأى، ولم يكن رآه فيها جميعا كان الكلام مستقيما، ولكن يكون معناه أن كل إنجيل لم يذكر حال المسيح كاملة، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكروها كاملة على هذا الأساس، ويكونوا قد نسوا حقا مما ذكروا به.

المسيح يدين ويحاسب :

٧٢ - لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدونها المسيحيون إلا أربعين يوما، ثم ارتفع بعدها إلى السماء، وجلس بجوار الرب في زعمهم، وسيأتي ليدين الناس يوم القيامة، يحاسب كل إنسان على ما فعل وقال إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وله بهذا الملك الأبدى، فلا فناء للملك، فهم يقولون : إن الله قد أقام يوما سيدين فيه سكان هذه الأرض بيسوع المسيح، لأن الآب في زعمهم لا يدين أحدا، بل قد أعطى ذلك للابن، فأعطاه سلطان أن يدين الإنسان، لأنه ابن الإنسان أيضا، ولا بد أن يظهر الناس جميعا أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع، خيرا أو شرا، هذه عقيدتهم.

فقد جاء في إنجيل يوحنا : «الحق أقول لكم، أنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون، لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطانا أن يدين أيضا، لأنه ابن الإنسان، ولا تعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة لأنى لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلنى». راجع الإصحاح الخامس.

وجاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس : «لا بد أننا جميعا نظهر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيرا كان أم شرا» (راجع الإصحاح الخامس من هذه الرسالة).

وجاء فى رسالة بولس إلى أهل تسالونيكى : «إن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً، وإياكم الذين تتضايقون - راحة معنا، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته، فى نار لهيب معطياً نقمته للذين لا يعرفون الله، والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب، ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد فى قدسيته، ويتعجب منه فى جميع المؤمنين».

فهذه النصوص جميعاً تبين بجلاء أن الذى سيحاسب الناس، ويجازيهم بما فعلوا الخير بمثله والشر كذلك. إنما هو المسيح فى نظرهم.

تقديس الصليب

مقام الصليب فى المسيحية :

٧٣ - لا يرتفع تقديس الصليب إلى مرتبة العقائد السابقة، لأن تلك العقائد أساس المسيحية، أما الصليب فليس له ذلك الحظ. وإن كان شعارهم، وموضع تقديس الأكثرين. ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح.

جاء فى إنجيل لوقا : «وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فليترك نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى».

وحمل الصليب كما يقول كتابهم، إشعار بإنكار النفس، واقتفاء أثر المسيح فى هذا الإنكار، والسير وراء مخلصهم، وقاديتهم.

جاء فى شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد : «إن آثار قدمى المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لأنه وإن كان المسيح قد صلب عنا فقال فى صلبه : « قد أكمل » لكننا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعى لأن نكون شركاء المسيح المتألم. إن شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغى أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه، إن صلب المسيح معناه مات عنا، ولكن صليب كل مؤمن معناه: «موت النفس عن الأناية وحب الذات» وخالصة هذه الذات هى النفس الأمارة بالسوء، هى تلك الإرادة المتمردة التى ينبغى أن نخضعها، ونستأسرها لطاعة المسيح، فقول كل واحد ليس ما أريد أنا بل ماتريد أنت يارب، إنه من أوجب واجبات كل مسيحي أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً. لأن التعبير

بحمل صليبه مستعار من العادة التي قضت بها الأنظمة الرومانية علي المحكوم عليه بالصليب أن يحمله كل يوم. وهذه العبارة انفرد لوقا بذكرها، فهو صليب يتجدد كل يوم، كلما تجددت الآمال في الحياة اليومية العملية، فلا بد إذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه، وخطوة تعقبه، أما الخطوة السابقة له فهي إنكار النفس، بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمانة بالسوء، لا ، لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافاً إلى ألم الموت، وهذا عمل يستلزم إنكار النفس، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط، بل فزعوا من ظله. كذلك كان شعور اليهود بأن الصليب هو حمل اللعنة، لأنه مكتوب في ناموسهم : «ملعون كل من علق خشبة»، والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هي اقتفاء آثار المسيح كقوله : «ويتبعني»، إذن ليس حمل صليبنا غاية لكنه وسيلة لهذه الغاية، وهي اتباع المسيح حيث «يمضي» أ. هـ.

فحمل الصليب إذن عندهم ليس غاية، وليس مقصوداً لذاته، ولكنه مقصود لغاية أخرى أسمى عندهم، وهي اقتفاء خطوات المسيح في إنكار الذات، والرضا بالفداء في زعمهم واتباع تعاليمه.

عبادتهم :

٧٤ - عند النصارى عبادتان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فإنهم يقولون إن شرعه عليهم اختياري لا إجباري، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق، فلنتركه إلى الكلام في الفرق والكنائس إن كان للقول متسع، ولنتكلم الآن في صلاتهم.

والصلاة عندهم ركن من أركان الدين، وهي في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح.

ولقد جاء في كتاب الأصول والفروع : «إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادي، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب، يعبر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنسبة لاقتناعه بجوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة، تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلباً ودعاء».

والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما، هما منها بمنزلة الدعامة :

الشرط الأول : أن تقدم باسم المسيح، فقد جاء في الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا : «الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم، وإلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً».

ويعلمون ذلك بأن الإنسان بسبب خطاياہ أبعد عن رضا الله، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد، وأصبح قريباً إليه.

فقد جاء في رسالة بولس إلى أهل أفسس في الإصحاح الثاني منها : «لكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً، ونقض حائط السياج المتوسط».

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع: «للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك، وهو أن الاسم يمثل دائماً المسمى فتكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا، بحيث تكون طلباتنا طلباته، وصلاحتنا صلاحه، وحياتنا حياته، وبالجملة كأنه يحيا فينا ولأجلنا».

الشرط الثاني :

أن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من إنجيل مرقس مانصه : «لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فأمنا أن تتأله، فيكون لكم».

وجاء في رسالة يعقوب : «وليكن الطلب بإيمان غير مرتاب ألبته، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئاً من الرب».

وايست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها، بل ترك لهم أن يتلوا العبارات التي يختارونها بشرط ألا تخرج عن قاعدة الصلاة التي علمهم إياها المسيح لكي يصلوا على منوالها، وهي المسماة بالصلاة الربانية، وهي التي جاءت في صدر الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا، ففيه عن المسيح، «وإذ كان يصلى في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يارب علمنا أن نصلى، كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه، فقال لهم : متى صليتم فقولوا : أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، ولتكن مشيئتكم كما

فى السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، وأغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا فى تجربة، ولكن نجنا من الشر. ولديهم أمثلة كثيرة للصلوات يختارون منها ما يسهل عليهم. وأشهر الأسفار المشتملة على نماذج للأدعية والصلوات سفر المزامير.

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : «إنه خزانة ذهبية لصلوات داود النبى وغيره من الأنبياء، صلوا بها فى أحوالهم الخاصة، مسوقين من الروح القدس، وكثيرا ما يعرض علينا ذات أحوالهم، فنقتبس من أقوالهم ما يطابق حالنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملمات الأمور، كما إذا كنا فى حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس فى صلاتنا من مزمارة ٥١ - لأنه يشتمل على أشد العبارات تأثيرا بصدد التوبة والاعتراف، والاستغفار من الله، وكما إذا كنا فى حال الشعور برحمة الله علينا ونعمته نقتبس من مزمارة ١٠٣ - التعبير عن شكر قلوبنا، وشعورها بالمحبة والنعمة» انتهى بتصرف.

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين، ورغبتهم فى العبادة، ولكن لأن اليهود كانوا يعبدون الله فى هياكلهم فى صباح كل يوم ومسائه استنبطوا أنه تلزم الصلاة مرتين، إحداهما فى الصباح، والأخرى فى المساء.

ويقولون فى حكمة ذلك «فى الصباح نطلب بركة الرب علينا سحابة اليوم، وأن يهدينا إلى عمل مافيه رضاؤه، وأن يحفظنا من السوء، وفى المساء نشكره على إحسانه علينا كما أننا نعترف بما فرط منا فى اليوم من الزلات، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا، وفوق ذلك لا نفتأ نذكر فضله ونشعر بجميله دائما».

وإذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم، فالمستحسن الإكثار، ويخالفون اليهود فى زعمهم أن الإكثار من الصلاة يجعل الله يمل.

جاء فى إنجيل لوقا فى صدر الإصحاح الثامن عشر مانصه، «قال لهم مثلا فى أنه ينبغى أن يصلى كل حين، ولا يمل قائلا : كان فى مدينة قاض لا يخالف الله ولا يهاب إنسانا، وكان فى تلك المدينة أرملة، وكانت تأتى قائلة : أنصفتنى من خصمى. وكان لا يشاء إلى زمان، ولكن بعد ذلك قال فى نفسه، وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنسانا، فإنى

لأجل أن هذه الأرملة تزعجني أنصفها لثلاثاتي دائماً فتقمعني. وقال الرب : اسمعوا مايقول قاضى الظلم، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارا وليلا وهو متمهل عليهم، أقول لكم أنه ينصفهم».

يقول القس إبراهيم سعيد في شرح الجمل في إنجيل لوقا، «ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل» من هنا ترى أن صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط، ولكنها من الأمور الواجبة، فهي فرض عين لا فرض كفاية، وهذا عن خلاف ما علم به التلمود : محظور على الإنسان أن يصلى أكثر من ثلاث مرات فى النهار، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح تعب على الجسد، سيما إذا تأخرت الإجابة، فالروح نشيط والجسد ضعيف».

وجاء فى آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي : «صلوا بلا انقطاع».

وبين معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول، «معنى هذا أن نستحضر فى أذهاننا روح الصلاة على الدوام، وكلما خطر على البال ذكر الله ومحبته نرفع قلوبنا إليه، سواء أكان بالقول أو بالتوجهات القلبية بدون كلام والله يعلم ما فى القلوب».

من شعائر المسيحية :

٧٥ - للمسيحية شعائر يجب القيام بها، لا يصح التخلي عنها، ويقولون فيها أنها فرائض مقدسة وضعها المسيح، وهى أعمال جليلة تشير إلى بركات روحية غير منظورة عندهم، ومن الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الربانى.

التعميد والعشاء الربانى :

وقد جاء فى إنجيل متى عن التعميد، «تقدم يسوع وكلمهم قائلاً : دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمنوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس ، وعلموهم جميع ما أوصيكم به».

وجاء بالنسبة للعشاء الربانى فى رسالة بولس لأهل كورنثوس مانصه : «إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها نفسه أخذ خبزاً، فكسر وقال : خذوا وكلوا، هذا هو جسدى المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكرى».

كذلك ذكر الكأس أيضا بعدما تعشوا قائلا : «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء».

بهذه النصوص ثبت التعميد، والعشاء الرباني، والتعميد يقول فيه صاحب كتاب الأصول والفروع : فريضة مقدسة يشار فيها بالفسل بالماء باسم الأب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح، وهي ختم عهد النعمة كما كان الختان في الشريعة الموسوية، والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله». ويقول في العشاء الرباني:

«وهو فريضة رسمها المسيح في الليلة التي أسلم فيها الجسد، ويستعمل في هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز، وقليلاً من الخمر علي المثال الذي رسمه المسيح تذكراً لموته، فالخبز يشير إلى جسده المكسور، والخمر إلى دمه المسفوك، فالمؤمنون الذين يشتركون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبز الذي نزل من السماء وكل من يأكل منه لايجوع، ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً حياة روحية لأجل النمو في النعمة والإيمان». ويقول أيضاً : «ويشير العشاء الرباني إلى مجيئ المسيح الثاني ، كما يشير إلى موته فيكون تذكراً للماضي والمستقبل».

من تنظيم الأسرة :

٧٦ - في الأناجيل ورسائل من يعتقدون أنهم الرسل في المسيحية ذكر للزواج والطلاق، ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة، وخلاصة ما جاء في كتبهم المعتمدة أن الزواج قد سن للإنسان وشرع له، بل إن الزواج شرعه الله للإنسان وهو في جنة عدن، فخلق لأدم من ضلعه حواء لأنه كما في التكوين : «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصبح له معيناً نظيره».

على أن المسيح في إنجيل متى قد أجاز العزوبة في حال عدم القدرة التناسلية، وذلك بدهي.

وجاء فى رسالة بولس لأهل كورنثوس أنه تجوز العزوبة إذا استطاع الرجل أو المرأة أن يضبط نفسه، ويتوقى الزنى، فقد جاء فى الإصحاح السابع من هذه الرسالة : «ولكنى أقول لغير المتزوجين ، وللأرامل : أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من الخرق».

وشريعة الزواج عندهم لا تحل للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة وإن لم يوجد نص فى ذلك، ولا يطلق، وقد فهموا تحريم الطلاق من إنجيل متى، ففى الإصحاح التاسع عشر منه : «قال له تلاميذه : إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام. بل الذى أعطى لهم، ولا يفترق الزوجان إلا بالموت، وبعد موت أحدهما يحل للحي أن يتزوج غيره».

وهذا نص ماجاء فى رسالة بولس لأهل رومية : «إن التاموس يسود على الإنسان مادام حياً، فإن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالتاموس بالرجل الحى، ولكن إن مات الرجل، فقد تحررت من تاموس الرجل، فإذا مادام الرجل تدعى زانية إن صارت لرجل آخر وقبل موت أحدهما لا يحل لهما الطلاق».

وهذا نص ماجاء فى متى فى الإصحاح التاسع عشر منه : «جاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى؟ وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، وإذ ليس بعد اثنين، بل جسد واحد، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق، فتطلق؟ قال لهم : إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا، وأقول لكم أن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى، وتزوج بأخرى يزنى، والذى يتزوج بمطلقة يزنى».

الطلاق إذن لا يجوز ولا يقع، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق :

الحال الأولى : حالة زنى أحد الزوجين ، فلأخر أن يطلب التفريق ويجاب فى هذه

الحال إن ثبت الزنى.

الثانى : إذا كان أحد الزوجين غير مسيحي فيصبح التفريق عند تهاجرهما وعدم وجود الألفة بينهما، ولذا جاء فى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس « والمرأة التى لها رجل غير مؤمن ، وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل، وإلا فولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق».

ولقد أمرت المسيحية فى وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم. فقد جاء فى إحدى رسائل بولس : «أيها الرجال أحبوا نساءهم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها» وفيها أيضاً : وأما أنتم أيها الأفراد فليحب كل واحد امرأته، هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتحب رجلها.

شرائع التوراة والمسيحية

منزلة شرائع التوراة فى المسيحية :

٧٧ - ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتباً مقدسة تسميها كتب العهد القديم، أن تأخذ بكل الشرائع التى نصت عليها التوراة إلا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه، ويظهر أن المسيحيين استمروا على ذلك نحواً من اثنتين وعشرين سنة بعد المسيح، وهم فى هذا كانوا يسيرون على المنهاج الذى سنه والطريق الذى بينه، ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضى اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم، وخطب يعقوب فيهم، مقترحاً عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم فى أربعة ، هى : الزنى، وأكل الخنوق، والدم، وما ذبح للأوثان، وكان ذلك لأنهم وجدوا أن الختان يشق على بعض من يدعونهم إلى النصرانية فيفرون منها بسببه.

وهذا نص ما جاء فى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بعد بيان خلاف التلاميذ بشأن الختان، واجتماعهم لأجل الفصل فى شأنه. وحينئذ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم، فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا، وهما يهوذا الملقب برسابا، وسيلا، رجلين متقدمين فى الأخوة، وكتبوا بأيديهم هكذا: الرسل والمشايخ يهدون سلاماً إلى الإخوة الذين هم من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية، إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس،

من الذين نحن لم نأمرهم، وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين، ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا، ويواس، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها، لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن - ألا نضع عليكم ثقلا أكثر، غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم، والمخنوق، والزنى ، التي إن حفظتم أنفسكم منها، فنعما تفعلون، كونوا معافين».

في هذا الخطاب يتبين أن المشايخ والتلاميذ يطلون للناس كل ما حرمه الناموس، أى التوراة وكتب النبيين السابقين، ولا يجعلون محرماً عليهم إلا أربعة أمور، والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط، وبذلك حل لهم كل شئ حرمة التوراة، حل لهم الخمر والخنزير، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمته، وبأى شئ أعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحرير؟ قد قالوا : إن ذلك بإلهام من روح القدس وتجليه.

وقد ذكر صاحب سفر الأعمال عن لسان بطرس، أنه قال فى افتتاح ذلك الاجتماع الذى أصدر ذلك القرار مانصه : «أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بسمى يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون. والله العارف للقلوب شهد لهم معطياً لهم روح القدس، كما لنا أيضاً ، ولم يميز بيننا وبينهم بشئ؛ إذ طهر بالإيمان قلوبهم، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع أبأؤنا ولا نحن أن نعمله ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص، كما أولئك أيضاً».

فمن هذا النص يستفاد أن الذى سوغ لهؤلاء أن ينصرفوا جهراً عما كانوا عليه، وعما تركهم المسيح عليه، هو أنهم ينزل عليهم الروح القدس، كما كان ينزل على النبيين والصديقين ، وذلك فى اعتقاد كتاب المسيحية، وقد بينا حقيقة ذلك فى موضعه من كلامنا عن الكتب.

تحليل لحم الخنزير مع تحريمه فى التوراة :

واقد أحلوا فيما أحلوا من محرّمات التوراة لحم الخنزير، وكان المعروف أنه حرام فى النصرانية التى تأخذ بكتب العهد القديم، وعلى رأسها التوراة.

ويرى ابن البطريق فى هذا المقام أن اليهود لما دخلوا فى النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى فى إيمانهم، فأشار بطريك

القسطنطينية على قسطنطين أن يختبرهم بحملهم على أكل لحم الخنزير. وقال له : «إن الخنزير فى التوراة حرام ، واليهود لا ياكلونه، فتأمر أن تذبح الخنازير ، وتطبخ لحومها ويطعمون منها هذه الطائفة، فمن لم ياكل علمت أنه مقيم على اليهودية» عندئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، إذ نصت على التحريم التوراة المقدسة فى نظر النصارى، كما هى مقدسة فى نظر اليهود، وقال : «إن الخنزير فى التوراة محرم فكيف يجوز لنا أن نأكل لحمه، ونطعمه للناس» ولكن البطريرك مازال به حتى حمله على الاعتقاد بأنه حلال، فقد قال له : «إن سيدنا المسيح قد أبطل سائر ما فى التوراة، وجاء بتوراة جديدة هى الإنجيل، وقال فى إنجيله المقدس أن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان، إنما ينجس الإنسان كل ما يخرج من فيه» يعنى السفه والكفر، وغير ذلك مما يجرى مجراه، ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس رأى رؤيا تفيد التحليل، وبذلك يحلون الخنزير.

الجامع المسيحية: تاريخها - وأسبابها - وقراراتها

٧٨ - قد شرحنا فيما أسلفنا من القول العقائد المسيحية، كما هى فى كتبهم ولم نتجه إلى الآن لدراستها دراسة نقدية لأننا نجدهم يجتهدون فى تصويرها ويشعرون بعظم المشقة فى ذلك، حتى إذا ينسوا قالوا أنها فوق العقل، وأن العقل لا يستطيع تصويرها تصويراً كاملاً، وأنها ستجلى يوم القيامة، ولذلك نجد من الظلم لأنفسنا أن نناقشها، لأن العقل لا يستطيعها باعترافهم، فكيف نناقشها؟ وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا فى تصويرها وتصديقها، لا فى البرهنة لها وإثباتها، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل، ونحيل القارئ الكريم على ماكتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء، ونخص بالإشارة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق، والقول الصحيح لابن تيمية ، بلل الله ثراه، فإن هؤلاء لم يتركوا مقالا لقائل.

ويهمنا الآن فى بحثنا التاريخي أن نبين الأوار التى مرت عليها هذه العقيدة، فإنه من المقرر فى تاريخ المسيحية بالبداية أن التثليث بالشكل الذى يعتقده جماهير المسيحيين، أو الكثرة الغالبة فيهم، لم يعلن للناس دفعة واحدة، بل فى أزمان متفاوتة مختلفة، وكان بإعلان الجامع التى كانت تعقد من الأساقفة، وفيها يقرر المجمع رأياً معيناً، ولا يهمنا مما كانت تقرره تلك الجامع إلا ما يتعلق بالعقيدة، وإن كنا سنعرض أحياناً لما كان يجي فى ثنايا قراراتها من بعض النظم.

كيف وجدت فكرة جمع الجامع :

والجامع في المسيحية هي كما يقول علماءهم جماعات شورية في المسيحية، قد رسم رسلهم نظاماً في حياتهم، حيث عقدوا المجمع بـأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة، وقرر ذلك المجمع، كما علمت قريباً، عدم التمسك بمسألة الختان، بل زاد عدم التمسك بشرائع التوراة، وما إليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس عندهم فيما يتعلق بالتحريم، إلا تحريم الزنى، وأكل المخنوق، وأكل ذبائح الأوثان، فقد قالوا أن التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال في إصحاحه الخامس عشر قد سئوا للمسيحيين سنة جمع الجامع لدراسة مايتعلق بالعقيدة والشريعة.

الجامع العامة والجامع الخاصة :

والجامع عندهم قسمان : جامع عامة أو على حد تعبيرهم مجامع مسكونية، أى تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة، والجامع المكانية وهى التى تعقدتها كنائس مذهب أو أمة فى دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها، إما لإقرار عقيدة، أو لفرض عقائد أخرى.

ويقسم الجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان إلى ثلاثة أقسام فيقول : «وهذه الجامع تنقسم بالنظر إلى عدد أربابها ودرجاتهم وشوكتهم إلى ثلاثة أقسام وهى : مجامع عامة، ويقال لها مسكونية، ومجامع ملية، أى خاصة بطائفة نون غيرها، ومجامع إقليمية، أى خاصة بإقليم مخصوص، لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج إلا إلى ذكر الجامع التى تعتبر عامة، سواء صادق عليها الجميع أو أنكرها بعضهم على بعض، لما فى ذلك من معرفة النتائج التى تولدت عنها».

هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحى، وإذا كان هو لايعنى فى تاريخ ديانتة إلا بالجامع العامة، فنحن كذلك لانعنى إلا بها، وقد أحصى الجامع العامة من القرون الأولى للمسيحية إلى سنة ١٨٦٩ فكانت عدتها عشرين مجعاً، وقد ذكرها جميعاً بالإجمال، وذكر قراراتها بالإشارة، وسنحذو حذوه فى بعضها، وسنترك الإجمال إلى بعض التفصيل فى بعضها الآخر، وخصوصاً فى الجامع التى كانت فى القرون الأولى للمسيحية لأنها هى

التي حددت للأخلاق حدود العقيدة المسيحية في نظر مقربيها، وهي التي رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة في الكنائس، أو بعضها الكثير إلي الآن، وهي التي فلتحت الأرض لتبذر بنور هذه المسيحية التي سادت أفكار المسيحيين في الأجيال من بعد.

ونبدأ بأعظم هذه المجمع، وأبعدها أثراً، وأكبرها شأنًا، وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً وهو مجمع نيقية.

١- مجمع نيقية سنة ٣٢٥

سبب انعقاده العام الاختلاف بينهم في شخص المسيح :

٧٩ - اشتهد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى، وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً. لا يمكن أن يكون معه وفاق، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح، أهو رسول من عند الله فقط، من غير أن تكون له منزلة أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول، فهو من الله بمنزلة الابن، لأنه خلق من غير أب، ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله، لأنه هو كلمته، ومن قائل أنه ابن الله، له صفة القدم، كما لله تلك الصفة. وهكذا تباينت نحلهم، واختلفت، وكل يزعم أن نحلته هي المسيحية الصحيحة التي جاء بها المسيح عليه السلام، ودعا إليها تلاميذه من بعده، ويظهر أن ذلك الاختلاف، وتلك النحل المتباينة المتضاربة المتنازعة قد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان، واليونان، والمصريين، فتكون في المسيحية مزيج غير تام التكوين، غير تام الاتحاد والامتزاج، وكل قد بقي عنده عن عقائده الأولى ما أثر في تفكيره في دينه الجديد، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد.

وممن دخل في ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديداً على ضوءها، وعلى مقتضى منطقتها وتفكيرها.

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهاد الرومانية، لأنهم شغلوا بدفع الأذى، ورد البلاء واستقبال المحن والكوارث، وكانوا يستسرون بدينهم ولا يظهرونه، ويخفون عقائدهم، ولا يعلنونها، حتى إذا رزقوا الأمان، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة، وإذا هم لم يكونوا متفقين إلا في التعلق باسم المسيح،

والاستمساك بالانتساب إليه، من غير أن يتفقوا على شئ في حقيقته، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه، واعتزم الدخول في النصرانية، ووجد هذا الاختلاف الشديد، أمر بعقد مجمع نيقية.

الاختلاف الخاص الذي انعقد المجمع بعده :

٨٠ - هذا هو السبب في عقد مجمع نيقية بشكل عام، ولكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات، وهو ما يسمونه في تاريخهم بدعة أريوس. كان هذا الرجل في مصر داعية قوى الدعاية، جريئاً فيها، واسع الحيلة، بالغ الأدب، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعو إليه، فقام هو محارباً ذلك، مقرأً بوجدانية المعبود، منكرأ ما جاء في الأناجيل مما يوهم تلك الألوهية.

كلام أريوس :

وقد قال في بيان مقالته ابن البطريق : «كان يقول أن الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن».

ولم يكن بدعاً في القول بهذه الفكرة بين المسيحيين، بل إنها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله، كما يقول المسيحيون أنفسهم.

ولقد جاء في كتاب تاريخ الأمة القبطية ما نصه : «الذنب ليس على أريوس بل على فئات أخرى سبقت في إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير أريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا التعليم وعم».

انتشار رأى أريوس وطرق محاربهه :

ولقد كان لرأى أريوس في اعتبار المسيح مخلوقاً لله مشايعون كثيرون، فقد كانت الكنيسة في أسيوط على هذا الرأى، وعلى رأسها ميليتوس، وكان أنصاره في الإسكندرية نفسها كثيرين من حيث العدد، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون، كما كان لهذا الرأى مشايعون في فلسطين ومقدونية، والقسطنطينية.

وقد أراد بطريرك الإسكندرية أن يقضى على هذه الفكرة، فلم يعمد إلى المناقشة

والجدل، حتى لا يتسع الخرق على الراقع، وحتى لا يلحن بالحجة عليه أريوس، ولكنه عمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة.

ويبنى ذلك على أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه، ونفى من الكنيسة مرتين لهذا الرأي، وبحجة تلك الرؤى المنامية، ومن أمثلتهم قول البطريرك بطرس الذي أمر بنفيه : «إن السيد المسيح لعن أريوس هذا فاحذروه، فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب، فقلت له : ياسيدى من شق ثوبك؟ فقال لى : أريوس، فاحذروا أن تدخلوه معكم».

ولم يجد النفى وإعلان الرؤى والأحلام فى القضاء على رأى أريوس وجمع الناس حول قوة الكنيسة، حتى إذا ولى أمر الكنيسة البطريرك إسكندر أخذ يعالج المسألة بنوع من الحيلة والصبر، فكتب إلى أريوس وزعماء هذا الرأى يدعوهم إلى رأى كنيسة الإسكندرية، ولكن محاولاته لم تجد أيضاً، فعقد مجمعاً فى كنيسته بالإسكندرية وحكم على أريوس بالحرمان منها فلم يخضع لهذا ولم يخضع وغادر الإسكندرية إلى فلسطين.

وقد كان مذهب عدم ألوهية المسيح ذاتعاً منتشرأ، وكان أسقف مقدونية على مذهب أريوس أيضاً، ويعظ على أساسه، وفى الحق أننا نجد أن أسقف مقدونية وأسقف فلسطين، وكنيسة أسيوط، كل أولئك على رأى أريوس، وكنيسة الإسكندرية وحدها هى التى تحاربه، فالخلاف محصور إذن بين أريوس، ومعه أسيوط وفلسطين ومقدونية وبين بطريرك الإسكندرية.

تدخل قسطنطين وجمع مجمع نيقية :

٨١ - وقد تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان فى الأمر، فأرسل كتاباً إلى أريوس والإسكندر يدعوهما إلى الوفاق، ثم جمع بينهما، ولكنهما لم يتفقا، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥.

ويقول ابن البطريرك المسيحى فى وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : «بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون ألفان من الأساقفة. وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان فمنهم من كان يقول أن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون المريميين، ومنهم من كان يقول أن

المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهى مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب، لأن الكلمة دخلت أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهى مقالة إليان وأشياعه».

ومنهم من كان يقول أن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشية، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون : الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، وبسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وأشياعه، وهم البوليقيانيون.

ومنهم من كان يقول أنهم ثلاثة آلهة لم تزل. صالح ، وطالح ، وعدل بينهما، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، أ. هـ. المراد منه.

موقف قسطنطين من المناظرين :

اجتمع أولئك، المختلفون، وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثلها، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من. وأخلى داراً للمناظرة، ولكنه جنح أخيراً إلى رأى بولس، وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة.

انحيازه لرأى مؤلهى المسيح مع أنهم ليسوا الكثرة :

ويقول فى ذلك ابن البطريق : «وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس فى وسطهم وأخذ خاتمه، وسيفه، وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى، لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلوبه سيفه، وقالوا له : أظهر دين النصرانية. وذبح عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع، منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به».

العقيدة التي فرضها المجمع :

وضع هذا المجمع المحدود من الأساقفة قرارات في العقيدة والشرائع، ليقيدوا بها المسيحيين، ولا يهمننا إلا بيان العقيدة التي قررها المجمع وفرضها على المسيحيين .

وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية، قال عنها ما نصه : «إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شيء، أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الأب، وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول أنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل نوران».

قراراته تؤيد برهبة السلطان :

٨٢ - إذن قرر المجمع ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، وأنه لايعتريه تغيير ولا تحول، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة سلطان قسطنطين، لاعتنا كل من يقول غير ذلك، والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفاً، ويخالفهم في ذلك نحو سبعمائة ألف أسقف، وإن لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ إن باب النقد فيه متسع.

النقد الموجه إلى المجمع :

(أ) وأول ما يلاحظه الناقد أن الذين دعوا إليه، وجابوا الأمصار ووصلوا إلى نيقية بدعوة من قسطنطين، وبتفاهم البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية وأربعين وألفين من الأساتذة، ولكننا نجد العدد ينزل إلى ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف، فما هي آراء الباقيين؟ ولماذا أهملت كل هذا الإهمال ؟ أكانوا جميعاً مختلفين في النحل والآراء، حتى أن نحلة لم يصل عددها إلى ٣١٨، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التي يزيد عددها على النصف، ولو واحداً، اتجهوا إلى الأخذ بالكثرة النسبية، وهو اعتناق الرأي الذي يأخذ به أكبر عدد من الأصوات وإن لم يصل النصف أو يقاربه؟ إن المروى غير ذلك، لأن ابن البطريرك يقول : إن قسطنطين هو الذي اختار أن يعقد أولئك الأساقفة الذين يبلغون ٣١٨ مجلساً خاصاً بهم، وحضر هو المجلس، وأعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على إخوانهم في زعم ابن البطريرك المسيحي التثليثي، ولأن الرواة يقولون أن أريوس لما اجتمع إليهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم

انضم إلى أرائه أكثر من سبعمائة أسقف، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة، فلو كانت النصره بالكثرة النسبية، لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها.

الرغبة والرهبه من السلطان لهما دخل فى القرارات :

ويظهر أن عصا السلطان ورهبه الملك كان لهما دخل فى تكوين رأى الذين رأوا ألوهية المسيح، فلقد يروى أن أولئك الـ ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بألوهية المسيح، ولكن تحت سلطان الإغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه إليهم شارة ملكه ليتحكموا فى الملكة اجتمعوا. فقد دفعهم حب السلطان إلى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلساً خاصاً بهم بون الباقين، ولاعتقاده إمكان إغرائهم. فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب أو هما معاً، وبذلك قرروا ألوهية المسيح، وقسروا الناس عليه بقوة السيف، ورهبه الحكام.

المجمع فرض لنفسه سلطاناً كهنوتياً على الناس :

(ب) أن المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأساً، بل لا بد من تلقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت، وأن أقوالهم فى ذاتها حجة، سواء أخالفت النصوص أم وافقت، سواء أكانت الصواب، أم جافت الحق، وأن ذلك كان له مابعد فى المسيحية. وهو مخالف كل المخالفة لما جاء فى تعاليم المسيح المنصوص عليها، حتى كتبهم التى يقرءونها ويعترفون بها، فقد جاء فى الإصحاح العشرين من إنجيل متى مانصه : «رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يسلطون عليهم، فلا يكن فيكم هذا» ولكن العلماء تسلطوا على إخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيبه، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين.

أمره بتحريق ما يخالفه :

(ج) أن المجمع أمر بتحريق الكتب التى تخالف رأيه، وتتبعها فى كل مكان وحث الناس على تحريم قراءتها، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى الناس علم بأى أمر من الأمور

التي تخالف رأيه، وهو بهذا يحاول التحكم فى القلوب، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه، ومنعها منعاً باتاً جازماً من أن تقرأ غيره، ويسد عليها منافذ النور للاهتمام إلى ما يخالفه، ولعل المجمع مخطئ فى ذلك التحريم، وأثم فى ذلك التحريف، بل إن المجمع العامة من بعد قد خطاته، فأعدت إلى حظيرة التقديس كتباً حرمها، وأخرجت من البلى كتباً حرفها، قد حرم كتباً من العهد القديم، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجمع المسيحية من بعده، وحرم من كتب النصارى المعتبرة الآن رسالة بولس إلى العبرانيين، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنا، ولكن المجمع من بعد أقرتها، وأجمعت عليها.

إذن لم يكن المجمع مصيباً من كل الوجوه، وإن أخطأ فى معرفة الصحيح من الكتب، فأراؤه الأخرى أكثر عرضة للخطأ وأكثر استهدافاً للنقد، لعل أشدها صلة بالباطل، وأقربها به رحماً، وأدناه إليه هو ما يتعلق بالعقيدة.

قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر :

(د) بقى أمر نشير إليه إشارة خفيفة، وهو مقام قسطنطين فى المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية فى ذلك الإبان، حتى ساع له أن يحكم لبعض المجتمعين، وإن لم يكونوا الكثرة على أى اعتبار كانت الكثرة، أكثره مطلقاً أم كثره نسبية؟ يقول المؤرخ أبوسيبوس الذى تقدس كلامه الكنيسة، وتسميه سلطان المؤرخين، «إن قسطنطين عمّد حين كان أسير الفراش، وأن الذى عمّده هو ذلك المؤرخ نفسه، وقد كان له صديقاً».

والتعميد إعلان دخول المسيحية، إذن فقسطنطين ماكان مسيحياً فى إبان انعقاد ذلك المجمع، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء، ويسوغ لنا أن نقول أنه كان له فى هذا أرب خاص، وهو تقريبيها من وثنيته أو على الأقل عندما رجح رأى فريق كان يرجح ما هو أقرب إلى وثنيته، وأدنى إلى ما يعرفه من عقيدة، فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار، أو كان متهماً فى ترجيحه بناء على الاعتبار الأول، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهو قد رجح ما هو أقرب إلى الوثنية لوثنيته.

تلقى المسيحيين لقرارات المجمع :

٨٣- ولكن هل أمات ذلك الرأى الوجدانية التى كان يجاهر بها أريوس، وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها؟ إنه لو فرض أبعد الفروض عن الحق، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأى أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعو إليه، لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة، وقوة الاقتناع بها، وسهولة دخولها إلى العقل، واستساغته لها، ولذلك لم يقض المجمع على فكرة الوجدانية. بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سبباً فى شدة الاستمسك بها، والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراد بها.

ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للاحتفاظ بها وحياطتها، واتخذوا الخديعة سبيلاً لذلك. فتقربوا من قسطنطين وأظهروا له الإقلاع عما كانوا عليه ليعودوا إلى ماكان لهم من مناصب. ويستطيعوا مناصرة فكرتهم. ولينالوا ثقة قسطنطين. ومن طريق هذه الثقة ينفذون إلى نفسه. ويقتنعونه هو بالتوحيد، ليستطيع أن يخدمه بسلطانه وقوته، كما خدم ألوهية المسيح، أو على الأقل ليوقف موقف الحياء ويترك الآراء تسير فى مجراها الطبيعى، ولتقص عليك محاولة من محاولات الموحدين.

مجمع صور يرفض بالإجماع قرار مجمع نيقية :

يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف نيقومدية كان موحداً من مناصرى أريوس فى المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرتة، ولعن من أجل هذا، وأراد أن يتقرب من قسطنطين، فأظهر أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فأزال عنه اللعنة قسطنطين. وجعله بطريرك القسطنطينية، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوجدانية فى الخفاء، فلما اجتمع المجمع الإقليمى فى صور حضره هو وبطريك الإسكندرية الذى كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو إليها، وينفرد من بين البطارقة فى المبالغة فى الدعوة إليها، والحث عليها، ولعن كل من يقاومها.

وانتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس، ورأيه فى المسيح وإنكار ألوهيته، وكان فى ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به، إذ لم يحتاطوا بإبعادهم، كما فعلوا فى المجمع العام بنيقية. واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية،

وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولى بل امتدت الأيدي إلى بطيريك الإسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها، فضربوه حتى أدموه، وكادوا أن يقتلوه، ولم يخلصه من أيديهم إلا ابن أخت الملك الذى كان حاضراً ذلك الاجتماع، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه.

ما يستنبط من هذا :

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأى بالعصا وجمع اليد، ولكن سقناه ليتبين منه القارئ مقدار حماسة الموحدين من أهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد، وأنهم فى تلك الحماسة لا يأبهون لشيء، ولا يهمهم إغضاب نوى السلطان أو إرضائهم، وسقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر من رواية الكتب المسيحية، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة فى المسيحيين، ففى مجمع نيقية كانوا الكثرة، وفى مجمع صور الخاص كانوا الجميع ماعدا رئيس كنيسة الإسكندرية. وإذا كانوا الكثرة فى المؤتمرات خاصة وعمامة، فلا بد أن يكونوا الكثرة فى جمهور المسيحيين.

وإذن تكون فكرة ألوهية المسيح هى العارضة والأصل هو التوحيد كما يستنبط القارئ من المصادر المسيحية نفسها، وسقناه لتعلم أن قسطنطين كان يشجع دائماً المخالفين للتوحيد. وإن كان لا يظهر السخط على غيرهم أحياناً. وسقناه لتعلم أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة مجمع الثمانية عشر والثلاثمائة. وأخيراً سقناه لتعلم أن موطن الدعاية لألوهية المسيح كانت كنيسة الإسكندرية وحدها، فهى التى حاربت أريوس، وهى التى لعنته مرتين، ورئيسها هو الذى خالف فى صور، ونال عقاب المخالفة جزاءً وفاقاً.

فهل لنا أن نقول أن التثليث الذى اشتملت عليه فلسفة الإسكندرية كان يعلن على ألسنة بطاركتها، وأنهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بأرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام؟ إن ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح فمن أراد أن يعرف كيف حالت المسيحية من توحيد إلى تأليه للمسيح، فليستعن به.

نشاط الموحدين :

٨٤ - ولم ين الموحدون عن إعلان الاستمسك بعقيدتهم، وتخطئة الذين أعلنوا ألوهية المسيح، ومعهم فى ذلك الكثرة العظمى من المسيحيين، كما يدل على ذلك ما سننقله

من تاريخ ابن البطريق، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين ابن قسطنطين إلى رأيهم بعد أن مات أبوه، فاجتمعوا به. وحسنوا رأي الموحدين له، وبينوا له أنه صميم المسيحية، وأن الأساقفة الذين ناقضوه خالفوا وجه الحق. ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التي بشر بها بين الأنام، ولكنه لم يعمل على نصرتهم، ولم يعاونهم في دعايتهم، مع أن أكثر المسيحيين في ذلك العصر كانوا موحدين.

يقول ابن البطريق : «في ذلك العصر غلبت مقالة أريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل ، والإسكندرية». وأسيوط قد علمت أن كنيستها كانت موحدة.

ويقول في بيان حال الإسكندرية ومصر بعد الإجمال السابق «فأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين، فغلبوا على كنائس مصر والإسكندرية وأخذوها، ووثبوا على أنثاسيوس بطريك الإسكندرية ليقتلوه، فهرب منهم واختفى».

وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ويحثون على الاستمسك به، وكما ولى أسقف غير موحد ثاروا به، وهموا بقتله، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت القدس لم يكن موحداً فيثور عليه الموحدون ويهمون بقتله فيهرب منهم، فيقول في ذلك «وثب أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسيا على كورلس أسقف بيت المقدس ليقتلوه، فهرب منهم، فصيروا أراقليوس أسقفاً على بيت المقدس وكان أريوسيا».

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح، الأولى تغالب بالكثر وقوة الإيمان، وسعة الحيلة، والثانية بقوة السلطان، وبقايا الوثنية والذين كانوا متأثرين بها، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا وأمكنته التقاليد من نفوسهم. ولكن قوة السلطان طمست نور المذهب الأول. إذ أنها احتاطت فجعلت كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين. واحتاطت أشد الاحتياط في ذلك، وأخذ أولئك يسيطرون على قلوب العامة بالرؤى والأحلام وإلهامات يزعمونها، حتى اختفى المذهب الحق في لجة التاريخ، ولم يبد على السطح إلا ألوهية المسيح.

٢- المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١

سبب انعقاده :

٨٥- تقرر في مجمع نيقية أن المسيح إله، وأنه ابن الآب وأنه جوهر قديم من جوهر الآب، ولم يتعرض للروح القدس أنه إله أم روح مخلوق وليس بإله، ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قراراً في هذا الأمر، لذلك ظهرت أفكار بين المسيحيين لا تعترف بألوهيته، ويظهر أن الإسكندرية التي كانت مهداً للأفلاطونية الحديثة التي تقول بالتثليث وأن المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه، قوة المكون الأول، والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) - تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين، كما كانت العامل القوي في إعلان ألوهية المسيح.

عدد المجمع والظعن في كونه عاماً :

أخذ رجل اسمه مقدونيوس يجاهر بأن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق مصنوع، وشاعت مقالاته بين الناس، ولم يجدوا فيها نكراً ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية. فاجتمع إلى الملك نوو الأمر من وزرائه وقواده، وبلغوه أن العامة قد فسدوا، فهم مازالوا متأثرين بوحدانية أريوس، واعتنقوا مذهب مقدونيوس في أن الروح القدس ليس بإله قديم، بل هو مخلوق مصنوع، وحرصوه على أن يجمع جمعاً من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوي ويدحضون قول مقدونيوس. فاجتمع في القسطنطينية خمسون ومائة أسقف، وكان المقدم فيها بطريرك الإسكندرية، ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلاً لكل الكنائس. ولكل الأقاليم، ولذلك كان اعتباره جمعاً عاماً من الأمور التي ثارت حولها الأقوال.

فيقول في ذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان: «قال الرهبان البندكتيون أن المجمع الذي لم يكن أريابه إلا مائة وخمسين أسقفاً لا ينظم في سلك المجامع المسكونية إلا بعد أن تقره جميع الكنائس».

بطريرك الإسكندرية هو الذي يقرر ألوهية روح القدس :

اجتمع هذا المجمع في القسطنطينية، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة فقر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية، وبذلك نحى عنها رئيس كنيسة

الإسكندرية. وكان لذلك أثره فى نفوس تابعى تلك الكنيسة كما جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية، ولكن مع إبعاد ممثل كنيسة الإسكندرية عن مكان الرياسة، وموضع الزعامة الذى كان لسلفه فى مجمع نيقية كان هو المقدم فى المناقشة، وتقرير الرأى الذى أجمع عليه المؤتمر بعد ذلك، وهذا ما نقله ابن البطريق عنه بنصه : «قال تيموثاوس بطريق الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته. فإذا قلنا أن روح القدس مخلوق، فقد قلنا أن حياته مخلوقة، وإذا قلنا أن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن».

قرار المجمع يوافق رأى بطريرك الإسكندرية :

واتفقوا على لعن مقدونيوس، فلعنوه هو وأشياعه، ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده، ويقولون بمقالته، إذن كان للإسكندرية فضل الصدارة فى القول، والقيادة فى الرأى العام، وإن لم تكن لها الرياسة.

نظرة فاحصة :

ونريد أن نستطرد استطراداً صغيرة عاجلة، وهى أن ننظر فى تلك السلسلة الفكرية التى ساقها فى شكل دليل شرطى كثرت مقدماته وكثرت تالياته، وأن نظرة سريعة فاحصة إلى الأساس الذى قامت عليه السلسلة ترىنا أنه جعل روح القدس هى روح الله، وهذا لا يسلمه له مخالفه. ولا يستطيع هو أن يقيم عليه دليلاً.

إن روح القدس خلقه الله، واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحيا من خلقه أو أمراً كونياً، فهى ليس روح الله المتعلقة بذاته، وليس عنده من دليل على ما قال، لكن هكذا ساق السلسلة، وهكذا اقتنع سامعوه، وبذلك تم له الثالث الذى يتشابه تماماً مع فلسفة الإسكندرية، وقد أعلنها بطريرك الإسكندرية، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الأقتنوم الثالث.

ويقول ابن البطريق فى بيان قرارهم : «زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا فى نيقية الإيمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له وممجّد، وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة

أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص، وحدية فى تثليث، وتثليث فى وحدية، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة».

إذن تقرر التثليث، وتمت أقانيمه، ولكن مازال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع، فإن طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية، كيف تجتمعان؟ هذا موضع الخلاف، ولهذا تجتمع المؤتمرات.

٣- مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١

سبب انعقاده :

٨٦ - أول اختلاف بينهم بعد تقرير الثالث أن بطريرك القسطنطينية نسطور رأى أن هناك أقنوماً وطبيعة، فأقنوم الألوهية مع الأب، وتنسب إليه. وطبيعة الإنسان، وقد ولدت من مريم. فمريم أم الإنسان، وليست أم إله.

ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم، كما نقله عنه ابن البطريق : «إن هذا الإنسان الذى يقول أنه المسيح بالمحبة متحد مع الأب، ويقال أنه ابن الله ليس بالحقيقة، ولكن بالموهبة».

النسطوريون ينكرون ألوهية المسيح :

يظهر من هذا أن المسيح الذى ظهر بين الناس لم يكن إلها بحال من الأحوال، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس.

ولذلك جاء فى تاريخ الأمة القبطية عن نخلته مانصه :

«أما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف فى عقائد وضعها الآباء والأخبار، بل هى جوهرية تختص بأعظم موضوعات الإيمان والأركان فى الدين المسيحى، ذلك أن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً فى حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إدا».

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بألوهية المسيح. وإن كان يعتقد أنه فوق الناس، وليس مثلهم، ولقد جهر بهذا الرأى، ونادى به، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية،

ولها مكائنتها، ولكن خالفه غيره من الأساقفة، فكان أسقف روما يعلنه برأيه المخالف له، مع ما عند نسطور فيما رآه من بينات، وأدلة.

واقدم بلغت مقالة نسطور بطريرك الإسكندرية، وجرت المراسلات بين أسقف الإسكندرية وأساقفة أنطاكية ورومة وبيت المقدس، فانفقوا على عقد مجمع أفسس للنظر فى هذا الرأى، وإعلان صاحبه بالتبرؤ منه، ولعنه إن أصر على رأيه، ودعوه لىسمع حكمهم فى رأيه. ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع. وأنهم مصريون على ما أعلنوه، كما أنه مصر على رأيه، فلم يجد كبير فائدة فى المجمع فلم يحضر لاهو ولا بطريرك أنطاكية.

وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين من الأساقفة، وقرروا ما نصه كما جاء فى تاريخ ابن البطريق:

«إن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد فى الأقسام» ... ولقد لعنوا نسطور.

قرار المجمع والاحتجاج عليه :

فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريرك أنطاكية غضب، واحتج على المجمع، فاختلف المجتمعون على رأيين، وأصر المشرقيون على الرأى الذى أعلنه المجلس أولاً، وكتبوا صحيفة فيها «إن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا وربنا يسوع المسيح الذى مع أبيه فى الطبيعة، ومع الناس فى الناسوت والطبيعة» وأقروا بطبيعتين، ووجه واحد وأقسام واحد، خالفهم بطريرك الإسكندرية أولاً، ولكن يقول ابن البطريق أنه وافق بعد ذلك وكتب إليهم «إن أمانتى التى فى صحيفتكم».

انتشار النسطورية فى الشرق :

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار، فنفى إلى مصر، ولم يندرس مذهب به بذلك النفى، ولقد وجد أرضاً صالحة لها فى الشرق، فلقد نهضت النسطورية فى نصيبين، ويقول ابن البطريق: «تكاثر النسطورية فى المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة».

٤- مجمع خليكدونية سنة سنة ٥٤١

كنيسة الإسكندرية تعلن أن المسيح إله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة :

٨٧ - ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف في مسألة اجتماع العنصر الإنساني والعنصر الإلهي في المسيح، فلم يقض على نحلة نسطور قضاء مبرماً، وإن كان قد نفاه وأذاه، بل نمت نحلته بعد ذلك في المشرق، وذاعت في البلاد التي ذكرها ابن البطريق ، ولم يتم الخلاف في ذلك عند نسطور وأتباعه، بل إن كنيسة الإسكندرية قد خرجت هي الأخرى برأى جديد عرضته على الملا من الأساقفة وجمعوا له جمعاً قرروه فيه، وذلك الرأي أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت، وانعقد لأجل هذا مجمع أفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص، وفي هذا المجمع أعلن ذلك الرأي. فلما عارضه بطريرك القسطنطينية وأعلن انسحابه من المجلس، وعدم احترامه، أمرهم رئيس المجلس بإعلان حرمانه، وحدث خارج المجلس صخب شديد، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة القسطنطينية. وقد اشتد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، أهو صحيح محترم السلطان، أم هو مجمع غير عام لا تلتزم بأرائه الكنائس كلها؟ واشتد الاختلاف في قرارات الحرمان التي أصدرتها، أهى محترمة واجبة التنفيذ، أم هى باطلة، لأنها صادرة من غير سلطة؟ حتى جاءت ملكة على الرومان تخالف ذلك الرأي، وتميل لغيره، فلتنفيذ رأيها في هذا الخلاف الشديد حول مجمع أفسس الثاني وقراراته - أمرت، هى وزوجها، بعقد مؤتمر عام، فاجتمع في مدينة خليكدونية عشرون وخمسائة أسقف، وكان الاجتماع تحت إشراف زوج الملكة، واجتمع في شهر أكتوبر سنة ٤٥١.

طلب انسحاب بطريرك الإسكندرية ورفض الطلب :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : «وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية هو انسحاب ديسقورس بطريرك الإسكندرية من المجلس. فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الأسباب التي تلجئ المجمع إلى إخراج هذا البطريرك من قاعته؟ فكان اعتراض هؤلاء أن ديسقورس شكل مجمعاً دون أن يستأذن الكرسي الرسولى، ويقصدون بالكرسي الرسولى بابا القسطنطينية .. فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الرأي

السقيم، وقرر المجمع بقاء ديسقورس، ولكن على غير كرسي الرئاسة، كما كان في المجمع السابق؛ لأنها أصبحت في يد رجال الإمبراطورة، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات في أثناء الاجتماع مما جعل مندوبي الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان أحدهم : «إنه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا مثل هذه الأعمال الشائنة من صياح، وصراخ، وسب، وقذف وضرب ولكم. بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والساد، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة، والدليل عوضاً عن القول الهراء، وأميلوا أذانكم إلى سماع ماسيتلى عليكم».

الشغب في المجمع :

وسارت المناقشة بعد ذلك في جو عنيف متعصب، وانتهى المجمع إلى أن قرر، أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأن الألوهية طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحده، التقتا في المسيح.

قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان :

وقد قال ابن البطريق في بيان قرار المجمع : «قالوا إن مريم العذراء ولدت إلها، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، وشهدوا أن المسيح له طبيعتان، وأقنوم واحد، ووجه واحد، ولعنوا نسطورس، ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالته، ونفوه، ولعنوا المجمع الثاني الذي كان بأفسس، وقد نفى ديسقورس إلى فلسطين».

الانشقاق ومداه :

٨٨ - هنا نرى انشقاقاً بين المسيحية المثلثة، واختلافاً يكون بعيد المدى في الأجيال المقبلة، وهو أساس اختلاف الكنائس إلى يومنا الحاضر . فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان إحداهما إنسانية يشارك فيها الناس، والأخرى لاهوتية، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين، وهو بذلك يخالف النسطوريين، لأنهم يقولون : أن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين، بل من العنصر الإنساني وحده، ويخالف قرار أفسس الثاني الذي يقول أن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتي من الروح القدس، ومن مريم العذراء

مصيراً هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين : ومشينة واحدة، وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة.

فإن المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا ، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع.

عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع :

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين مالحق ببطيريكهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذى أصدر هذا الحكم، وأعلنوا رضاهم ببقاء بطيريكهم رئيساً عليهم، ولو أنه محروم مشجوب، وأن إيمانه ومعتقده هو عين إيمانهم ومعتقدهم، ولو خالفه فيهما جميع أباطرة القسطنطينية، وبطاركة رومية، ولقد اعتبر المصريون أن الحكم الذى صدر ضد بطيريكهم ماس بحريتهم الوطنية، مجحف بحقوقهم السياسية، ولو أنه حكم دينى صرف».

ولقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فنثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطيريكاً يعين على غير مذهبهم، وعلى غير رغبتهم، واستمروا على غضبهم، فصاروا ينتقصون الحين بعد الحين، كلما لاحت لهم الفرصة، وديسقورس لم يمنعه النفى من أن يدعو المسيحيين إلى اعتقاده فى منفاه.

ويقول ابن البطريق : « لما نفى سار إلى فلسطين وبيت المقدس، فأفسد دين كل من بفلسطين وبيت المقدس، حتى قالوا بمقالته».

المصريون يرفضون تعيين بطيريك على غير مذهبهم :

٨٩ - ولقد كان الاختلاف يشد كلما عين الرومان بطيريكاً، فإن المصريين يرفضونه محتجين بأنه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم، ويجب أن يكون بطيريكهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذى ارتضوه ديناً، وباختيارهم، فكان بعض الأباطرة يأخذهم بالعنف، وأولئك هم الأكثرون، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة، فيترك لهم الحرية فى اختيار بطيريكهم، والاطمئنان إلى مذهبهم، وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحياناً على نهج من الهوادة والرفق، وأحياناً كثيرة على شطط وعنف.

يعقوب البرادعى ونسبة المذهب المصرى إليه :

وفى هذه الأثناء يتغلغل فى ربوع الدولة الرومانية الدعاة إلى المذهب المصرى والدعاة إلى المذهب الرومانى، أو مذهب رومية مقر الأباطرة، أو المذهب الملكى كما سماه العرب من بعد.

ولقد ظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى العارضة، بليغ الأثر اسمه يعقوب البرادعى، قد أخذ يجول فى وسط القرن السادس الميلادى فى البلاد الرومانية، يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية، ويبيث ذلك المذهب فى نفوسهم، ويدخله فى قلوبهم، وسلك فى سبيل ذلك المخاطرة والجرأة، لا يابى لقوة مهما تكن، ولا لذى خطر مهما يكن شأنه.

وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « قيل أنه رسم ٨٩ أسقفًا، وألوفًا من الكهنة والقسوس، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن المسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البرادعى زعيم هذا الحزب».

ولكن من الخط الكبير والخط الذى يدل على الجهل إطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ، لأن مذهبها نشأ قبله، وهو تبعه، إذ لا علاقة لها بيعقوب ، أما إذا سميت الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية فانت مصيب غير مخطئ ، لأن هذا الاسم صار معلماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الإسلامى. وهو اسم عربى الأصل مشتق من كلمة ملك، ومعناها الذين ينازرون إلى الملك، أو الإمبراطور الرومانى مذهباً وسياسة».

انفصال الكنيسة المصرية نهائياً :

٩٠ - ولقد كان قرار مجمع خليكونية هو السبب فى انقسام الكنائس، أو بعبارة أدق هو السبب فى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية، ولقد لخص صاحب كتاب (تاريخ المسيحية فى مصر) عقيدة الكنيسة المصرية فقال : «كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس، وديسقورس، ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية،

والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثانى، أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء فصير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزها عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشينة واحدة».

هذه هى قرارات تلك الكنيسة، وهى تخالف ما تقرر فى مجمع خليكونية كما علمنا.

الجامع الباقية

الجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة :

٩١ - عنينا ببيان الجامع الأربعة السابقة ببعض التفصيل، ولم نضن على القرماس فيها ببعض الإطناب، لأنها الجامع التي قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة.

فأولها قرر ألوهية المسيح، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله، لا الإنسان فقط، وأن مريم ولدت الاثنين، ورابعها قرر أن المسيح نوعين منفصلتين، لا طبيعة واحدة متحدة، والجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها جامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين أجمعين، أما المجمع الرابع فهو ليس مجعاً عاماً في نظر المصريين، والكنائس تنهج نهج كنيستهم.

والجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكوني كما يعبرون، فكل هذه الجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة رومة، أو انشقاق كنيسة روما عليها.

وإننا نشير إلى هذه الجامع إشارة، ولا نخرج عليها بتفصيل لذلك، ولأن قراراتها كانت في فروع جزئية لا تتصل بلب التثليث إلا في بعض الجامع، ويقدر سير، لا يمس الجوهر، ولا يتغلغل في صميمه، وقد نعرض لهذا بقليل من التفصيل.

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٢، ويسمى المجمع القسطنطيني الثاني.

المجمع القسطنطيني وسبب انعقاده :

ويذكر ابن البطريق أن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح، وسار فيها إلى أقصى مداها. حتى لقد قال أنه ليس هناك قيامة، وبسبب أن بعض الأساقفة قد زعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة، بل كان خيالاً، فاجتمع لذلك هذا المجمع، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة، ولعنهم وطردهم من زمرة المسيحيين، ولم يكتفوا في اجتماعهم بإصدار قراراتهم في هذه الأمور، بل ثبتوا قرارات الجامع السابقة، ومنها قرار مجمع خليكونية، وبذلك ثبتوا عقيدة

كون المسيح ذا طبيعتين، وأكفوا إنكار الطبيعة الواحدة التي اعتنقتها كنيسة مصر. ومن
والأما من المسيحيين.

المارونية :

٩٢ - وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون في القرن السابع الميلادي سنة ٦٦٧
كان يقول أن المسيح ذو طبيعتين، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد،
ولكن يظهر أن هذه المقالة لم ترق في نظر البطارقة، فأوعزوا إلى الامبراطور أن يجمع
جمعاً عاماً في زعمهم، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين، وذو مشيئتين، بعد أن استوثقوا من أن
الإمبراطور، واسمه يوغاقوس، على رأيهم، بمكاتبات تبادلوها معه.

فقد جاء في أحد كتبه : «نحن نقر، ونؤمن بطبيعتين، ومشيتين، وفعلين لسيدنا
المسيح، وأقنوم واحد، ولنعلن من خالف هذا».

مجمع القسطنطينية الثالث :

اجتمع كذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م، وقد كان من عمله
لعن وطرده كل من يقول بالمشيئة الواحدة. كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة،
وكان مؤلفاً من نحو تسعة وثمانين ومائتي أسقف. وبعد أن قرروا لعن وطرده من يخالفهم
كشأنهم دائماً. قالوا : «إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذي هو الكلمة
الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تماماً بناسوته،
تماماً بلاهوته في الجوهر الذي هوربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيتين
في أقنوم واحد، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدوني أن الإله الابن في آخر الأزمان اتخذ
من العذراء السيدة مريم القدسية جسداً إنسانياً بنفس ناطقة عاقلة، وذلك برحمة الله
محبة البشر، ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد
يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمل في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمل في طبيعته، الذي هو
الابن الوحيد، الكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت لحقه لحماً كما يقول الإنجيل المقدس
من غير أن تنتقل من مجدها الأزلي وليست بمتغيرة، ولكنها بفعلين، ومشيتين وطبيعتين إله

وإنسان، وبهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها، فتعملان بمشيتتين غير متضادتين».

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء في تاريخ ابن البطريق، وقد أطلنا في النقل، ليكون كلام القوم مبيناً لفكرهم كما يريدون، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه، أو نحيد به عن مرماه.

ولقد كان من آثار القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين، كما خرج من قبل الأقباط وكنيستهم، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان.

مجمع تحريم اتخاذ الصور :

٩٣ - وقد جاء مجمع غير عام بإقرار انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤

وفيه جمهور من الأساقفة، وفدوا إليه من جهات مختلفة وقد قرر تحريم اتخاذ الصور (١) والتمثيل في العبادة، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة إيريني بمدينة نيقية، ويسمى المجمع النيقاوى الثانى سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقفاً، وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين، لا بعبادتها، وجاء فى هذا القرار: «إنا نحكم بأن توضع الصور ليس فى الكنائس والأبنية المقدسة، والملابس الكهنوتية فقط، بل فى البيوت وعلى الجدران فى الطرقات، لأننا إن أطلقنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح، ووالدته القديسة والرسول، وسائر القديسين فى صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم، والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التى لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية». هذا هو المجمع السابع قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاماً، وخالفته أخرى، فلم تعتبره كذلك.

(١) يقرر الأستاذ المرحوم أمين الخولى فى رسالته «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتمثيل فى أماكن العبادة إسلامية، وأن أشد من ظهر بعباداتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذى أقلق الكنيسة واتخذ العنف سبيلاً لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين، وينقل عن صاحب كتلب الطرف النيقية قوله: «إن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية إذ يجب فى التقرب إلى المسلمين بذلك. أو فعل ذلك تقليداً لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العصر للمسلمون فى ديارهم»، ويقول الأستاذ أمين الخولى: «والحركة الإسلامية التى سمعت خبرها فى تحطيم التماثيل هى التى قلم بها السليقة الأموى يزيد ابن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ: ٧٢٠م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) إذ كتب يزيد إلى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام والتمثيل، فكسرت كلها، ومحيت من ديار مصر وغيرها فى أيامه».

انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية وسببه :

٩٤ - وانتقل بعد ذلك إلى المجمع الثامن، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التي ترأسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التي ترأسها كنيسة روما.

وقد علمت أن المجمع الماضي التي انفصلت بسببها فرق مسيحية كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح، ولم يتعرض أحد للروح القدس، ومن أى شئ انبثق، حتى أثار بطريرك القسطنطينية كيف كان انبثاقه، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده، فعارضه فى ذلك بطريرك رومة قائلاً : «إن انبثاق الروح القدس كان من الآب والابن معاً، ولم يكن من أحدهما، وكل فريق عاضد رأيه بجمع قد جمعه، وكلاهما قد اعتبر هو ومشايعوه مجمه عاماً ملزماً للآخر، ومجمع الآخر خاصاً غير ملزم، وكل لعن الآخر وطرده، واعتبره محروماً مطروداً من حظيرة المسيحية، كشأنهم عند كل اختلاف.

أعلن بطريرك القسطنطينية رأيه، وهو أن الروح القدس انبثق من الآب فقط، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسيه من غير إرادة رئيس الكنيسة بروما، وبعد أن دس لسلفه ما أبعد عن كرسيه، فاجتمع فى القسطنطينية مجمع بعد عزل البطريرك الذى نأوا روما سنة ٨٦٩، وأصدر قراراً يتضمن البت فى ثلاثة أمور :

أولها : كون انبثاق الروح القدس من الآب والابن .

ثانيها : أن كل من يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى إلى الكنيسة بروما.

ثالثها : أن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التي يقوم بها رئيس كنيسة روما.

وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عندهم سنة متبعة، وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمه فوسيسوس، وحرمانه هو وأتباعه.

استطاع فوسيسوس هذا أن يعود إلى منصبه، فلما عاد إليه كان أول ما صنعه أن عقد مجمعاً آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩، ويسمى هذا المجمع الشرقى اليونانى كما

يسمى الأول الغربي اللاتيني، وقد قرر فيه رفض كل مآقره المجمع الأول، وقرر أن انبثاق الروح القدس من الآب فقط، وقد صار كل مجمع يعتبر عاماً عند مشاييعه، كما يعتبرون الآخر خاصاً، بل باطلاً غير ملزم، وكل يكفر الآخر أو يفسقه و«كل حزب بما لديهم فرحون»

٩٥ - كان هذان المجمعان هما السبب في انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية، وغربية لاتينية، ورئيس هذه الكنيسة الغربية هو البابا، وهو مستقل بسياستها وله السلطان على كل الطوائف المنقادة إلى تعاليمها.

الكنيسة الغربية أم الكنائس :

وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشاييعها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول في زعمهم، ويزعمون أنه كبير الحواريين ورئيسهم، ويقولون أنه رأس هذه الكنيسة، والبابوات خلفاؤه من بعده، وتسمى الغربية لكون سلطانها في بلاد الغرب. ويقول صاحب كتاب سوسنة سليمان : «وهي تدعى أنها أم الكنائس، ومعلمتهن، وربما حق لها ذلك لجهة التفاسير التي تبنى عليها أصول التعاليم التقليدية، ونظامات الجامع، وترتيبها، وهي أيضا التي تأمر بها، وتمتد شوكتها على الخصوص في بلاد إيطاليا وبلجيكا، وفرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، وشعوبها منتشرة في أقطار الأرض».

وأما الكنيسة اليونانية، ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية، فأكثر مشاييعها في الشرق وسلطانها فيه، وهي تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية في كثير من التقاليد المسيحية، ولكنها تخالفها في انبثاق الروح القدس. فتقول أنه من الآب فقط، كما بينا، ولا تعترف إلا بالجامع السابقة على المجمع الذي أوجد الانفصال، كما لاتعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرياسة. ولكن لمرور الزمن، وما أحيط به من تقديس بين مشاييعه، وعند الملوك وأكثر معتنقى مذهبه - وتتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان، ويليه في الرتبة بطريرك القسطنطينية، والمشايعون لما في بلاد روسيا واليونان والصرب، وكثير من جزر البحر المتوسط وغير هؤلاء.

المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا في نظر الكنيسة الغربية :

٩٦ - قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت، والمجامع الآتية كلها مجامع غير عامة في نظر الكنيسة الشرقية، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من أتباع الكنيسة الغربية فقط، ولذلك لا تعتبر تلك المجامع عامة إلا في نظر الكنيسة الغربية.

فالمجمع التاسع انعقد في رومة سنة ١١٢٣، وأعظم قراراته شأنًا الحكم بأن تعيين الأساقفة، ليس من شأن الحكام، بل من عمل البابا وحده.

محاولة تقريب بين الكنيستين :

والمجمع العاشر انعقد في رومة أيضاً سنة ١١٣٩، وكان أعضاؤه ١٠٠ عضو، وقد حاول هذا المجمع إزالة الفرقة بين الكنيستين فلم ينجح.

والمجمع الحادى عشر الذى انعقد فى رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام التأديب الكنسى، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلاثى عدد الكرادلة.

وكان فى هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسد المسيح ودمه، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ.

حتى جاء المجمع الثانى عشر سنة ١٢١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائياً، ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه، وهو مبدأ أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء.

وتتوالى بعد ذلك المجامع الكاثوليكية لأغراض عامة أو إقليمية، وفى بعضها تتجدد محاولة توحيد الكنيستين المتصلتين، وفى بعضها يتقرر التنقيب عن القلوب، ومحاربة الخارجين عن التعليم المسيحية.

وأهم هذه المجامع وأعظمها أثراً وأقواها عملاً، المجمع التاسع عشر الذى انعقد فى ترينتينو والنهضام انعقاده من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٦٤، وفيه الرد على البروتستانتية.

وختام هذه المجامع هو المجمع المتمم للعشرين المنعقد فى روما سنة ١٨٦٩ وقد أثبتوا فيه المعصنة للبابا.

وقد قال فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : «وقد نشأ فى ذلك انقسام فى الطوائف

الكاثوليكية ببلاد أوربا والشرق، والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالى أوربا سموا أنفسهم الكاثوليكين القدماء، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة».

الفرق المسيحية

٩٧- من البيان الذى سقناه فى الجامع، وما انعقدت بسببهِ من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتققيها، والغالب على كل نحلة سواه من نحلها. وإنك لترى ذلك واضحاً فيما بيننا من أن أريوس عندما ظهر مقاوماً لفكرة ألوهية المسيح، ومنازعاً كنيسة الإسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبثه فى النفوس وهو ألوهية المسيح وتتحدى به على رؤس الأَشهاد، بينما كان أتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية، (وهذه مواطن المسيحية فى ذلك الإبان) أكثر عدداً وأقوى مكانة، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس، وكل ذلك مع قسطنطين الإمبراطور الحاكم بأمره الذى لا معقب لحكمه، كان يشايح فكرة ألوهية المسيح ويناصرهما، ويحميها ويؤيدها، كما بينا عند الكلام فى مجمع نيقية إذ حمى القائمين أن المسيح فيه ألوهية بحمايته، ووضعهم تحت ظله، وأمدهم بالجاه والسلطان.

وإذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد، فصح لنا أن نقسم عصور المسيحية إلى قسمين :

عصر التوحيد : ونجعل نهايته الزمن الذى انعقد فيه مجمع نيقية. أو ما ولى ذلك الزمن بقليل. إذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح رداً غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية.

والعصر الثانى : عصر تأليه المسيح، وذلك العصر يبتدئ بعد مجمع نيقية، وبعد أن استطاع أباطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد فى وسط المسيحيين، ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

وإذن فمن الحق علينا أن نراعى هذا التقسيم عند الكلام فى الفرق القديمة عند المسيحية، فتقسم تلك الفرق إلى قسمين :

فرق ظهرت فى عصر التوحيد، وربما كان وجود بعضها قبل مجمع نيقية إرهاباً لعهد التثليث.

وفرق ظهرت فى عصر تأليه المسيح وعصر التثليث.

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التي ظهرت قبل عصر النهضة في أوروبا، أى قبل القرن الثالث عشر الميلادى، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التي ظهرت بعد عصر النهضة، وهى التي ظهرت فى عهد الإصلاح الدينى، وما والاها.

الفرق التي ظهرت فى عصر التوحيد :

٩٨- والفرق التي ظهرت فى عهد التوحيد كثيرة، وبعضها كان مستمسكا بالتوحيد، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخى، وكما يستفاد من ثنايا التاريخ، وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد، حتى كان وجوده تمهيداً للتثليث أو سيراً ببعض الخطوات فى سبيله.

وأظهر الموحدين أريوس وأتباعه، وقد كانوا كثيرين، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطاركة، وكان رأيه منتشراً فى مصر والشام ومقنونية، وهى مواطن المسيحية كما علمت.

فرقة أريوس :

يقول ابن حزم فى بيان فرقة أريوس : «والنصارى فرق، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السماوات والأرض، وكان فى زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية، وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب أريوس»

وهذا الكلام يحتاج جزءه الأخير إلى نظر، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب أريوس، وقد بينا عند الكلام فى مجمع نيقية، أنه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه، فعزل أنصار لاهوت المسيح، واعتبر المجمع مكوناً منهم دون سواهم، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين، فرفض رأى الكثرة، وعقد مجعاً مؤلفاً من ثمانية عشر وثلاثمائة، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة أريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة.

نعم إن الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبته إلى رأيهم، وضمه إلى مذهبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطاناً، فمال إليهم أخيراً ، أو أظهر الميل، وإن كان لم يعمل على مذهبهم، ولم يعقد مجعاً ليقرر رأيهم، كما فعل بالنسبة لغيره، وأقصى ما عمله أنه رد

المحرومين إلى حظيرة المسيحية، وأعاد المنفيين من مفاهم، ومكثهم من الاستمتاع بنعمة الحرية. ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة، إذ رأهم كثرة المسيحيين الغالبة. وأقوالهم هي الشائعة الرائجة، فأظهر الميل إليهم حتى لا ينقضوا عليه.

أصحاب بولس الشمشاطى :

٩٩ - ومن الموحدين الذين ظهروا أصحاب بولس الشمشاطى، ويقول فيه ابن حزم: «كان بطريركا بأنطاكية، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه. وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة، ولا روح القدس»

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيداً خالصاً، وأن عيسى ليس إلا رسولا من رب العالمين. وأنه كان إذا عرض له البحث فى كلمة الله، وروح القدس أمسك عن ذلك، ولم يخض فيه، وتوقف واعتصم بذلك.

ويقول ابن البطريق فى بيان مذهب بولس هذا : «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون إن الله جوهر واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية، وهم البوليقيانيون».

هذا ما قاله ابن البطريق فى معتقد بولس الشمشاطى، وهو لا يختلف فى جوهره عن كلام ابن حزم الأندلسى فيه، وإن اختلفت العبارات، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الإنسى هو ما عبر عنه ابن حزم بالرسالة، والنعمة الإلهية التى حلت فيه هى الوحي، واختياره ليكون رسول الله إلى الناس يهديهم، والنبوة التى جاءت فى عبارة ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كناية عن المحبة، ولعل بولس لم يجرها على لسانه، أو لم تجئ فى بيانه، ولكن ابن البطريق المسيحي المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره، وإن كان المراد غير موافق للمثلثين.

دخول الوثنية على التوحيد :

١٠٠ - وكان بجوار الموحدين الذين كانت أقوالهم السائدة المنتشرة في ربوع المسيحيين، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا في المسيحية وفيهم بقايا الوثنية، ولاتزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه، ففهموا المسيحية على ضوء ما عرفوه أولاً. واهتضموا المسيحية متمثلة في نفوسهم بما استكن في تلك النفوس من آراء ومعتقدات سابقة، وإن ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل المختلفة التي ظهرت في المسلمين في إبان الفرقة التي تلت مقتل الخليفة الرابع. وما أدخل من آراء ونحل في عصر يزيد ومن وليه.

ولكن الإسلام بنور القرآن الكريم وحفظه، وهدى النبي ﷺ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة، وما كلاً الله به هذا الدين المتين - قد نفى عنه الدخل، وذهب الزيد جفاء، وبقي الدين، كما بعث نبيه عليه الصلاة والسلام صافياً من غير رنق ولا تكرار.

أما في المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما بيناه في الكلام عليها، واختلط فيها الغث والسمين والطيب بالخبث، وضلت العقول، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح، وذهب الكوكب السارى الذى يضى وسط الدجنة الحالكة، وهو كتاب مبین لا يأتيه الباطل، ولا يتطرق إليه الريب، يكون فيصل التفرقة بين المسيحية الحقّة، والأساطير الباطلة التي أفسدتها.

أتباع مرقيون :

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم، كما تبرز رؤوس الشياطين وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع وجاءت على نحل مختلفة، وأهواء متباينة، ونزعات متضاربة، وبأسماء كثيرة.

فمنهم من كان يقول أن هناك آلهة ثلاثة : صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهم أتباع مرقيون، ولعل هذه النحلة من آثار المجوس، لأنهم هم الذين يقولون بإله الخير وإله الشر.

ولقد قال ابن البطريق في هذا النحلة وأصحابها : «وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحورايين، وأنكروا بطرس» فلننتحلون لهذه النحلة يزعمون أن مرقيون دأبها والمناذى بها حواري من حورايى عيسى عليه السلام، بل كبير الحواريين وشيخهم والمقدم فيهم ورئيسهم.

البربرانية:

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول أن المسيح وأمه إلهان، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالت كلماته فى قوله تعالى مبيناً ما يكون بينه سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام من قول يوم القيامة، قال تعالت كلماته :

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب* ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد* إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

ولعل فريقاً منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم.

نحل آخر :

ويقول ابن البطريق فى بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمع نيقية : ومنهم من كان يقول أن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية، وهى مقالة بابليدوس وشيعته، ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم تسعة أشهر ، وإنما مر فى بطنها، كما يمر الماء فى الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت فى أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته وهى مقالة إيلان وأشياعه.

ضياح التوحيد بسبب تحريف الكتب :

١٠١ - هذه هى بعض المقالات والأهواء والنحل التى جاءت فى عصر التوحيد رنقت صفاءه، وكانت نكتا سوداء فى وسط المسيحية الحق النضرة، ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة، ويبقى الأصل سليماً نقياً، لم يتأشبه شىء من المفاسد، ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من أى جانب، ولا يتطرق إليه الظن والاحتمال، ليكون ميزاناً للحق والباطل، ويكون مقياساً تقاس به الآراء، ويكون مرجعاً يرجع إليه المختلفون.

ولكن الاضطهادات التي نزلت بالمسيحيين، ومصادرة الكتب وتحريفها بأمر الرومان، والأيدى العابثة المفسدة، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعترتها الشك والريب، ومن وراء ذلك نفذت الأهواء والأساطير إلى القلوب، وأخذت تتال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد، وكتاب ثابت السند.

فكل نحلة تدعى لا تجد رداً لها من نص، وهي تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص، بل بقوة الداعي ومقدار لحنه بالحجة الباطلة والصحيحة، ومقدار نشاطه وبيانه وسعة حيلته ودهائه، ودرسته على جذب الجماهير.

واقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح أبلغ تقديس، فكانت مهارة الدعاة وقوتهم البيانية متجهة إلى هذه الناحية، يزينون في تقديس المسيح فيزيون كلامهم قبولاً لدى العامة، ثم انتقلوا من التقديس المعقول إلى الغلو المرنول، فغالوا حتى عدوه إليها.

وهكذا أخذت العقيدة تفسد، وكان العامة بين حبلين قويين، وكل حبل في يد عصابة من أولى القوة، فحبل التوحيد، ومعها العقل، ومعها الأصل ومعها السيادة للتوحيد، وحبل آخر قد أخذ يجتذب العامة إليه بقوة، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التي يحبونها، وأرضى شهوتهم فيها، وهي ناحية تقديس المسيح عليه السلام، وأخذ يلقي تعاليمه في النفوس، وقد وضعها في ذلك اللون الشهى، وذلك الطعم المستساغ.

العامل الثاني : عامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تاليه المسيح وإدناؤه من نوى السلطان، وتمكينه من الرقاب، وتغريب من لا يقول هذه المقالة، واضطهاده، وإبعاده عن حظيرة المسيحية، ولعنه وطرده وتصويره للناس بصورة من لا يقدس المسيح، ولا يرجو له وقاراً وإجلالا.

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعة في الاستدلال والتي تقف المغالين عند حد الاعتدال. وقد كانت كفة التوحيد هي الراجحة حتى بعد مجمع نيقية، ولكن جاءوا بعد ذلك، وأخفتوا صوت المنادين بالتوحيد وحيل بينهم وبين ما يدعون إليه. ولم يمكنهم من أن تصل دعوتهم إلى العامة فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون إلا جانباً واحداً، وخاضعين لعامل واحد، وهو الخروج عن نطاق التوحيد، فتم للحكام والقسيسين ما أرادوا، واختفى دين المسيح عليه السلام. وقام دين البطارقة والقسيسين.

الفرق القديمة فى عهد التثليث

١٠٢ - بعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية، وإن كان أتباعه أكثر عدداً، وأعز نفراً، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة فى الكنائس، ولا تجعل صوتهم يصل إلى الشعب، بالنفى والتشريد، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد، وفعل الزمن فعله، وتغلّبت الظلمة على النور، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع. وعندئذ كانت الفرق التى تظهر بعد ذلك فى ظل ألوهية المسيح فى الجملة إن استثنينا مقدونيوس وفرقته.

فرقة مقدونيوس :

وأول فرقة ظهرت فى ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا، فقد أنكرت أن يكون روح القدس إلهاً، وقاومت ما ترمى إليه الكنيسة العامة من فرض تلك الألوهية ودعوة الناس إليها، وحثهم على اعتناقها، ولعل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا يزالون يعتقدون التوحيد، ويتابعون فى ذلك أريوس وسائر الموحدين. وإن كانت الغلبة لغيرهم، فهال أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ويثنون بتأليه الروح القدس، فجاهر بإنكار الثانى، لأنه لم يعد فى قوس الصبر منزع.

يقول ابن البطريق : «وفى عشر سنين من ملكه - قسطنطين ابن قسطنطين الثانى - صير مقدونيوس بطريزكا على القسطنطينية، وكان يقول : إن روح القدس مخلوق، وأقام عشر سنين ومات».

لكن مقالاته لم تمت بموته، بل كان له أشياع وأتباع وخصوصاً من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية، وإن أصبحوا فى الجملة لا سلطان لهم.

لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، وقد ذكرنا بعضاً من قراراته، وكان المقرر والمناظر والمجادل فى هذا المقام بطريزكا الإسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة، كما نوهنا آنفاً، ويسمى المقدونيين الأبولناريين فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان فى بيان المجمع القسطنطينى : «المجمع القسطنطينى المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولناريين، وهم المقدونيون المنكرون للاهوت الروح القدس».

ويعتقد الكنسيون أن إنكار إلهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين، فيقول صاحب تاريخ الكنيسة : «وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأى أريوس) أرطقة أخرى لم تكن أقل مناقضة للثالوث الأقدس، فكانت تنكر ألوهية الروح القدس، وكان منشئها مقدونيوس، وهو نصف أريوسى قد اخنلس كرسى القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسى، ولم تكن له شهرة خصوصية فى بهوة الأسجاسى التى أحدثها الأريوسيون». وهذا زعم له نصيب من الواقع، لأن الذين ينكرون ألوهية المسيح، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقررون بألوهية الروح القدس.

ولكن يجب أن يلاحظ أنه فى الوقت الذى أنكر فيه مقدونيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت فى مجمع عام، وقد يكون موضع حديث البطاركة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس إلهاً، فتصدى مقدونيوس لإنكار ذلك، وتلقى الناس كلامه بالقبول، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنين.

النسطوريون :

١٠٣ - هذه النحلة تنسب إلى نسطور، وقد كان بطريك القسطنطينية ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد إلهاً، بل ولدت الإنسان فقط، وهو بذلك يرى أن الأتقوم الثانى، وهو الابن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثثين، بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأتقوم الثانى، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئاً واحداً، وذلك الاتحاد ليس اتحاداً حقيقياً، بل اتحاداً مجازياً. لأن الإله منح المحبة، وهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن، وهذا التخريج لا شك يؤدى إلى أن المسيح الذى خاطبهم وكلمهم، وحوكم وعوقب فى زعمهم، لم يكن فيه عنصر إلهى قط، فلم يكن إلهاً ولا ابن الإله.

وقد نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية تقرر أن كلام نسطور معناه، أو يلزم منه حتماً، إنكار ألوهية المسيح.

ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الإسكندرية، ويوحنا بطريرك أنطاكية فى ذلك الإبان، ليعدل عن رأيه، فلم يصغ إليهما، ولم يجب طلبهما، فانعقد مجمع أفسس سنة ٤٣١، وقور لعنه وطرده، وإثبات أن مريم العذراء قد ولدت الإنسان والإله.

وقد بينا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع.

ولقد أبعده ذلك نسطور عن منصبه ونفى، فصار إلى مصر وأقام في أخميم إلى أن مات.

ويقول ابن البطريق : «كانت مقالة نسطور قد اندثرت، فأحيها من بعده بزمان بوصوما مطران نصيبين في عهد قباذ بن فيروز ملك فارس، وثبتها في الشرق، وخاصة أهل فارس، ولذلك تكاثرت النسطورية في الشرق، «في العراق والموصل والجزيرة». ولا يزال إلى الآن في الأماكن التي يذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب.

ويقول صاحب سوسنة سليمان: «إن النسطوريين في هذا العصر يسمون الكلدان، يسكنون خاصة فيما بين النهرين، والبلاد المجاورة لهما، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم، غير أنهم يمتازون عن باقي المذاهب باعتقادهم أن نسطوريوس حرمة مجمع أفسس ظلماً. أضف إلى ذلك بأنه لم يكن في المسيح طبيعتان بل أقنومان أيضاً، وكان يحسب هذا المعتقد في الزمن القديم ضلالاً مبيناً، وأما في هذا الزمان فيحسبه العلماء، حتى الكاثوليك الرومانيون، غلطاً لفظياً لا معنوياً، لأن هؤلاء الكلدانيين يعتقدون أن في المسيح أقنومين، كما أن فيه طبيعتين، ويقولون أيضاً بأن هذين الأقنومين، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما رؤية واحدة».

وهذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما أن الكنيسة الرومانية التي كانت تشدد في القرون الخالية في طرد كل من يخالف معتقدها، وتعدّه كافراً لا يلج الإيمان قلبه، قد تساهلت في هذه الأعصر، فوسعت صدرها للمخالفين لها، وتأولت لهم، لتدخلهم في حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرده واللعن والتكفير.

ثانيهما : أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادئ نسطور، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية، وكما قرر ابن البطريق، لا يرى أن الأقنوم الثاني مزج المسيح قط، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة، واستتبطنها كما استتبطن غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الإلهي خلواً تاماً، وهو يصرح بأن مريم ولدت الإنسان فقط، بينما غيره يقرر أنها ولدت الإله والإنسان، وهذا اختلاف جوهري في الحقيقة والمعنى لا في الشكل واللفظ، وإذا كان النسطوريون في هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت في الناسوت كما يقول غيرهم، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور.

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا في بلادهم، بلاد العراق والموصل، ومنهم طائفة تقيم في الهند، وأخرى تقيم في بلاد العجم، وهم جميعاً يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به عند غيرهم من الكنسيين، وليس عندهم من تقليد إلا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل، والامتناع عن الزواج، وذلك منذ سنة ١٨٣٠م، وهذا كما جاء في كتاب سوسنة سليمان.

اليعقوبيون :

١٠٤ - هم أتباع يعقوب البرادعي، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت، ونسبة ذلك المذهب إلى يعقوب البرادعي لأنه من أنشط الدعاة إليه، لا لأنه مبتدعه ومنشئه، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا، فإن أول من أعلنه بطريرك الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي.

وبسبب ذلك الإعلان انعقد مجمع خليكونية، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي، ويقرر صاحب سوسنة سليمان في إطلاق اسم اليعقوبيين على أصحاب هذا الرأي «يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة إلى يعقوب البرادعي الذي أعاد هذه الشيعة، ورتبها في القرن السادس للتاريخ المسيحي، بعد أن كادت تتلاشى».

وقد فصلنا الكلام في هذه النحلة والأبوار التي مرت عليها عند الكلام في مجمع أفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص. وفي مجمع خليكونية، فلا نعيد ما ذكرناه، حتى لا نقع في التكرار الممل.

والذين يقولون أن المسيح ذو طبيعة واحدة، ينقسمون إلى آسيويين وأفريقيين، ولكل قسم رياسة دينية خاصة به.

فرئيس الآسيويين هو بطريرك السريان، ومن هؤلاء الآسيويين من اعترفوا برياسة الكنيسة الكاثوليكية، فقبلتهم وإن استمروا على رأيهم.

ورئيس الأفريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة، ويتبعه في هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية، وهو يعين لهم أسقفاً يسوسهم.

ومن الذين يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحدة - ويتحدون مع الكنيسة القبطية في ذلك الاعتقاد، ولكن لهم تقاليد دينية وطقوس، ولهم بطاركة يرأسونهم. ولا يندمجون في كنيسة القبط، ولا كنيسة السريان بآسيا - الأرمن.

المارونية :

١٠٥- هم أتباع يوحنا مارون، وقد اشتهر يوحنا هذا برأيه سنة ٦٦٧م ودعا إليه وشايعة بعض القسيسين فيه، ومعهم بعض من مسيحيي آسيا، وهو أن المسيح ذو طبيعتين، ولكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة، ومن أجل هذه النقطة الجديدة اجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد، وقرر حرمان مارون، ولعنه وتكفيره وكل من يذهب مذهبه، وينتحل نحلته، وقد أشرنا إلى ذلك المجمع، ونقلنا لك قراره في المذهب، فلا نعيد نقله.

ويظهر أن المنتحلين لهذا الرأي لم يكونوا نوى شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد، فقد تزلت بهم اضطهادات شديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار، فلم يجدوا لهم مأمناً يعتصمون به إلا بعض البلاد في جبل لبنان فاعتصموا بها، وقد استمروا على اعتصامهم وبعدهم، حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية وقربتهم منها، وأعملت الحيلة والسياسة، حتى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها على أن يبقوا على رأيهم، ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد، وما زالت هذه الطائفة متوطنة بجبل لبنان، ولها بطريرك خاص، وإن كانت تقر بالرياسة لبطريرك روما.

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

أساس انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية :

١٠٦- كان فيما ذكرناه أعظم الانقسامات القديمة شأنًا، وأبعدها أثرًا إن استثنينا الكنيسة القبطية، انقسام الكنيسة إلى يونانية ولاتينية وما يتبع ذلك الانقسام من انشقاق في المسيحية كلها، وما تفرع عن الأولى من فروع وفرق، وإنا نكتفى بهذا القدر من القول في الفرق القديمة التي مازال منها بقايا إلى أيامنا الحاضرة، ونختم القول فيها بانقسام الكنيسة إلى يونانية شرقية ولاتينية غربية، وقد نوهنا إلى الانقسام عند الكلام في المجمع، وأشرنا إلى أسبابه بالإجمال.

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التي آلت إليها رئاسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة، وكنيسة رومة التي آلت إليها رئاسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران :

أحدهما - يتعلق بالاعتقاد - وهو أن كنيسة القسطنطينية ومن والها من بعد، اعتقدوا أن الروح القدس من الآب وحده، لا من الآب والابن، وكنيسة روما ومن والها قد اعتقدوا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن معاً، وعقد كل فريق مجمعاً شايح اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به، وكان المجمع المشايح لرومة سنة ٨٦٩، والمشايح للأخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩.

ثانيهما - لا يتعلق بالاعتقاد - ولكن يتعلق بالرئاسة الكهنوتية، وهي لكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة؟ لقد قرر المجمع الذي شايح رومة أن تكون لرومة، فريش كنيسة لها هو الحبر الأعظم، والرئيس الروحي للمجمع، وقرر المجمع الذي شايح القسطنطينية رفض تلك الرئاسة وعدم الاعتراف بها، ويعتبرون رئيس القسطنطينية رئيساً عاماً للكنيسة.

ولقد تبع هذا الاختلاف في هاتين المسألتين الرئيسيتين خلاف في مسائل أخرى أوجدها تتابع السنين واستمرار الشقاق، فقد كثرت أوجه الاختلاف في مسائل فرعية منها :

١- استعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز، فإن ذلك أقرته الكنيسة الغربية، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية.

٢- أكل الدم والمخنوق ، فإن الكنيسة الغربية أباحتها وهو مخالف لمجمع الرسل في أورشليم الذي انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنين وعشرين سنة.

٣- أكل الرهبان دهن الخنزير، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

٤- لبس الأساقفة الخواتم فى أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم.

وجاء فى حاشية لكتاب سوسنة سليمان ما نصه : «يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطاركة، وربما كان ذلك لكونها ما كانت تحددت وقتئذ كقاعدة دينية فى كنيسة رومة، كالمطهر الذى لم يثبت إلا فى مجمع فلورنسا المنعقد فى سنة ١٤١٩ ، ثم أوجب قبوله على كل الكنائس الغربية المجمع التريدينتينى فى القرن السادس عشر.

أما الفرق بينه وبين عقالات جهنم التى يقررها الروم، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطى بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه.

أما عقالات الجحيم، وهى حظيرة حبس يقيم فيها الخطاة إلى يوم الدينونة الذى به ينالون القصاص الأبدى فى جهنم. والصلوات التى يقدمونها لأجل الموتى، يعتقدون أنها تطف نوعاً أحوال هذا الحبس عليهم تلطيفاً وقتياً فقط.

وكذلك منع الشعب من الاشتراك فى الكأس إذا لم تثبته كنيسة رومية إلا فى مجمع كنستانس سنة ١٤١٥.»

تقادم الزمن يوسع الخلاف :

١٠٧- كان كلما تقادم الزمن على النقطة التى ابتدأ منها الخلاف اتسعت فرجاته، وكبرت زاوية الانفراج، وكلتا الكنيستين ذات بأس وقوة، وكانت فى القديم لها دولة تحميها، إذ كانت دولة الرومان منقسمة إلى شرقية وغربية. فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما أكد الفرقة وقوى الانقسام.

ولقد كان يأتى الفينة بعد الأخرى صوت يدعو إلى الوحدة والائتنام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام، فتعقد لأجل هذا مجامع، وترسل الوفود. ولكن ما أن يتلاقى المتخاصمان، حتى تعاد أسباب النزاع جذعة، إذ كل واحدة ترغب فى أن تنزل الأخرى عن

رأيها، فتلاحي كل واحدة عما تعتقد، فيشتد الجدل، ويحمى وليس القول، فتفترقان، وقد زادت القطيعة قوة واحتراما.

محاولة إزالة الخلاف :

حاول أحد بطارقة روما في منتصف القرن الحادى عشر أن يجمع الشتات ، ويلم الشمل، وعرض مبادئ تكون أساساً للمصلحة، رفضها بطريرك القسطنطينية، وأصدر الأول قراراً بحرمان الثانى، فأصدر هذا قراراً بحرمان الوفد الذى عرض عليه الشروط.

وهكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقى، وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ويظهر أن السبب فى ذلك ماتعته كل واحدة منهما أن الأخرى خارجة على الدين، ورغبة كل واحدة فى أن تجتذب الأخرى إليها كما بينا.

انتقاد مسيحي للكنيسة الغربية :

ويقول فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : «إن الكنيسة الرومانية تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الإطلاق هى شيع هرطوقية خارجة منها، ومنفصلة عن شركتها. وهذه الدعوى تصح لأية كنيسة أمكنها أن تثبت لذاتها الأقدمية فى الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية. أما كنيسة رومة، فليس لها فى هذه الدعوى إلا الاستيلاء على أمانة صندوق التقليدات.

غير أن سلامة الذوق تقتضى بأنه كلما قلَّت التقاليد فى كنيسة من الكنائس دل على أقدميتها بالنسبة التى تزيد عليها فيما هو من هذا القبيل، لأن التقاليد على ما يستبين من مجريات رومة قابلة للزيادة، والزيادة إحداث، وإحداث فى الدين لا ريب فى أنه بدعة، والإبداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة».

ونرى من هذا أن صاحب هذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة، ولعل السبب فى ذلك النقد ليس مجرد الحق، بل كونه ليس من مذهبها، وإلا كان كل ماتقوله مقدساً لا بدعة فيه.

١٠٨- وقد بينا البلاد التى تتبع الكنيسة الغربية، وكانت فيما مضى كل أوروبا تقريباً وبعض طوائف فى آسيا.

بطارقة الكنيسة الشرقية :

أما البلاد التي تتبع الكنيسة الشرقية، فأكثرها في الشرق كما أسلفنا من القول، ولها بطاركة.

أولهم بطريرك القسطنطينية، وهو كبيرهم، ويضيفون إلى لقبه وصف أنه البطريرك المسكوني، ويقول صاحب سوسنة سليمان : «إنه ليس إلا لقباً تشريفاً فقط، فليس له تسلط على غيره من البطارقة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانوني أصلاً».

ويليه في الرتبة والمكانة الدينية بطريرك الإسكندرية للأروام الأرثوذكس ثم بطريرك أنطاكية، ثم بطريرك أورشليم، ثم المجمع الروسي، ثم عدة مجامع لأسقفيات مستقلة أخرى كأسقفية أثينا، وأسقفية قبرص وغيرها.

وقد ظهرت في روسيا التي كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفرق كثيرة بلغ عددها نحو مائتي نحلة، وتعداد أصحاب هذه الفرق الجديدة مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليوناً.

فمنهم فرقة لا ترى تعميد الأطفال، ومنهم شيعة تحسن للنصراني أن يقتل نفسه في حب المسيح، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار، فيتطهروا بها، ومنهم شيعة تلتزم الختان باعتباره كان في المسيحية الأولى وفي التوراة التي تعتبر النصرانية مجددة لها، وهكذا تختلف النحل وتتباين، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين.

الإسلام يظل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية:

١٠٩ - ذكرنا أن العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر والكنائس الأوربية. ونزل بمصر أشد البلاء، ولم ينقذهم إلا الفتح الإسلامي، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام إلى الآن شعر المصريون بحريتهم التي لم يستمتعوا بها من قبل، حتى أهداها إليهم الإسلام السمح الكريم.

ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن تنزل إحداهما بالأخرى أشد البلاء، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية إلى شرقية

وغربية، واعتصام كل واحدة منهما بدولة، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى.
فلم تقبض على ناصيتها.

ولكن لما أخذت الدولة الشرقية فى الانحلال، وخلفها المسلمون على بعض أملاكها،
وأخذوا يقصونها من أطرافها. أخذت ترجح إحدى الكفتين على الأخرى فقويت الغربية،
وصارت لها السيادة. واعترف بطريك القسطنطينية له بالتقدم عليه فى الجلسة، وإن لم
يعترف بأنها على حق فيما يختلفان فيه، وما اختلفا فيه من قبل، والبلاد التى اقتطعها
المسلمون كانت تتمتع بالحرية الدينية كشأن المسلمين فى معاملتهم لغيرهم.

ولما جاءت الحروب الصليبية، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة كنيستها
للكنيسة الشرقية وغيرها من المدن الإسلامية التى يعيش فى ربوعها المسيحيون آمنين
مطمئنين، لايزعجهم اضطهاد، ولا يرنق صفاءهم ضغط، ثم ثنى أولئك الصليبيون أتباع
الكنيسة الغربية، فاستولوا على دولة الرومان الشرقية نفسها، فأنزلوا بإخوانهم من البلاء
ما لم يكونوا يعرفون.

ولنترك الكلمة للمسيحى صاحب سوسنة سليمان، فهو يقول: «حرك البابا أتوسنت
الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان، فافتتحو القسطنطينية سنة
١٢٠٤، وداموا متسلطين عليها إلى سنة ١٢٦١م فاستعملوا ما أمكنهم من البربرية فى
الأراضى التى امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين، ليخضعوا بطارقة أورشليم، وجميع
الأكليس اليونانى بواسطة الحبس، وإقفال الكنائس إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودة
العرب حكام البلاد الأصليين على موادتهم ويختاروا تسلط شعب يرضى بجزية على أن
يتسلط عليهم ملك روحى طمعه وطمع قصاده لا يشبعان».

حينئذ أحس أولئك المسيحيون بنعمة الإسلام عليهم، ونعمة حكم المسلمين لهم، فقد
سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان، ونقبوا عن قلوبهم، وبحثوا عما تكنه
الصدر، ولكن نعمة الإسلام كانت تلاحقهم، فلم ينقض زمن طويل، حتى جاءهم الإسلام
فى القسطنطينية وأعطاهم الأمن والدعة والقرار والاطمئنان، حتى لقد قالوا كما حكى
صاحب السوسنة: «عمامة السلطان محمد الفاتح، ولا تاج البابا المثلث».

وهكذا كان الإسلام رحيماً تسع رحمته المخالفين.

الفرقة الحديثة البروتستانت، (١)

أو الإصلاح الديني

حال الكنيسة قبل الإصلاح :

شدة الكنيسة على الناس والعلماء :

١١٠- اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين، وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة، والدعوة الصالحة، والإرشاد القويم، ومخاطبة الأرواح والنفوس، وتمكينها من أن تتبعتها، وهي حرة مريدة مختارة، بل سلكت سبيل العنف، وركبت متن الشدة، فجعلت كل رأى في العلوم الكونية يخالف رأيا كفوفاً، ولا تدعو معتنقيه إلى الهداية، وترشده إلى الرشاد، كما يليق برجال الدين مع من يروونه ضالاً، بل تكفر لأوهى الأسباب، وتحرق أو تعذب من تراه كافراً بلا رفق ولا هوادة.

فهذا المجمع الثاني عشر من مجامع الكنيسة هو المجمع المسمى باللاتيرانى الرابع المنعقد سنة ١٢٥١ يقرر استئصال الهرطقة، ويعنون بذلك كل من يرى رأياً مخالفاً للكنيسة، ولو كان رأياً في الكون أو طبائع الأشياء، ولم تكف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس، وتكشف عن سرائر الناس بما أسماه التاريخ محاكم التفتيش، التي دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام، وما أزهقت من أرواح، وما سفكت من دماء، وما عذبت من أحياء.

وإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الإصلاح، داعياً رجال الكنيسة إلى أخذ الناس بالرفق، وحاتا رجال الدين على الأخذ بهديه كان عقابه الحرمان والقتل.

حدث في أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب إصلاح البابوات، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفاً، و ١٨٠٠ من رجال الدين، ولكن هذا المجمع انتهى في قراراته بالأمر بإحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقه جيروم.

(١) سمي الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح الكنسى، وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت، لأنهم

عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجاً يسمى بالإنجليزية برتسنت، فسمى الذين أمضوا القرار بروتستنت، أى المحتجين.

واقدر حررق وعذب فى هذا السبيل علماء استشهدوا فى سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة، وضيق صدر القوامين عليها .

ومما يذكر فى هذا أن أحد العلماء واسمه أبيلارد كان له رأى فى تكفير المسيح عن خطيئة آدم، خالف به رأى الكنيسة فقال: ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى فى ذلك من تعذيب سببلا لإرضاء الله وإنزال عفوه عن خطيئة الإنسان، فعفو الله أيسر من ذلك وأقرب، وإنما لاقى المسيح ما لاقى إعلاناً لما يكنه قلبه من حب الله، وعسى أن يثير فى الناس عاطفة الشكر وعرفان الجميل، فيعيدهم إلى طاعة الله. ولكنه ما أن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس محاكمته، فكان نصيب كتبه التحريق، ونصيبه السجن الدائم، حتى وافته منيته.

وجاليليو يرى رأياً فى الكون فيسجن لذلك الرأى، مع أن رأيه ليس من أمور الدين فى شىء.

فرض سلطانها على الملوك :

١١١- بالفت الكنيسة فى شدتها، كما رأيت، ولم ينج حتى الملوك من طغيانها، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالأخرى إلا اتصال محبة وسلام، أو حرب وخصام - كان ذلك سبباً فى أن صار البابا لاسلطان لأحد من ولاة الأمر عليه، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار الجامع، لا بتعيين ملك أو أمير، مهما تكن قوته وسطوته، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذى لا يرد على كل مسيحي، مهما تكن مكانته، يستوى فى ذلك الأمير والخفير، والرعى والرعية، فليس لأى ملك سلطان على البابا، والبابا له سلطان على كل ملك، لأنه مسيحي، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين، ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول، وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيساً على الحواريين من بعده، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه، ويتكلم بخلافته، وينفذ بسلطانه، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح، وحارب دينه.

قرارات الحرمان تنال الملوك:

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك، كما فرضوها على سائر الناس، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجمع بحرمانهم، وطردهم من حظيرة المسيحية، ولعنهم، فقد جاء في كتاب سوسنة سليمان: «المجمع الثالث عشر انعقد في ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥ بأمر البابا إينوسنت الرابع لأجل عزل فرديريك ملك فرنسا وحرمانه، وهذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقاً».

لم ينج إذن الملوك من قرارات الحرمان والطرده، وإن لذلك أثره في نفوس شعوبهم، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم، وهم في ذلك لا يمتنعون عن أن يثيروا القالة في رجال الكهنوت، ويكبروا صغائرهم، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم، حتى ينفردوا بالاحترام، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم.

١١٢- هذه هي الكنيسة في معاملتها للناس، عنف وزجر وقسوة، لا إرشاد وهداية وإصلاح، وهي تضرب كل من يعترض طريقها. لا تفرق بين سائس ومسوس، وحاكم ومحكوم، وراع ورعية.

وقد احتكمت لهذا بنوى السلطان، فكان لا بد من مغالبة بينهما. ولم يكن الأمر مقصوراً على الأذى البدنى تنزله بمن يخالفها، ولو فيما ليس بينه وبين الدين نسب، ولا يتصل به بسبب. ذلك إلى إرهاب المسيحيين بأثاوات مالية يفرضونها، وضرائب كبيرة يأخذونها، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يئنون تحت نير ثقيل، سواء في ذلك من خالف ومن وافق، فالمخالف بالعذاب يهراً به جسمه، والموافق بالمال يتقل به، وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحياناً، وما يجمع من أموال الفقراء والمجودين التي حصلوا عليها بالكد واللغوب يتوزعه رجال الدين بينهم، وينفقونه إسرافاً وبيداراً في سبيل تحقيق رغباتهم، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله، وينفقونه في غير حله أيضاً، وبذلك انغمسوا في شر ما في هذه الدنيا، وتركوا لب الدين.

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة :

١١٣- ولقد احتجرت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا معقب لما تقول في هذا التفسير، أو في رأى

تبديده، أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولاً قالته أو مبدأً دينياً أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع، فعليه أن يشك في العقل، ولا يشك في قول البابا. لأن البابا خليفة لسلسلة الخلافة التي بيناها.

ولقد كانت تعلن أموراً ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم، وما تعرض له المسيحيون الأولون، ولا المجامع الأولى، وهي أمور غريبة جد الغرابة، بعيدة عن القبول في أحكام العقل جد البعد، وتلزم المسيحيين بها، وتفرضها عليهم فرضاً، ومن قال كلمة فيها فالويل له، ينزلونه به في الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان في الآخرة.

ونذكر القارئ على سبيل المثال بمسألتين كان لهما أثر في الفكر المسيحي، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون في جرأة، داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى. هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة، ومسألة الغفران.

مسألتا الاستحالة والغفران :

١١٤- أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمت في شرح الشعائر النصرانية، من أن المسيحيين ياكلون يوم الفصح خبزاً ويشربون خمراً، ويسمون ذلك العشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه، وذلك أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد ببسر وسهولة، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط. إذ كيف يتحول الخبز لحماً، وكيف يصير لحم شخص معين معروف. وكيف تتحول الخمر دماً، وتصير دم شخص معين معروف؟ ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول في العقل، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عرضوا للطرد والحرمان. وهل ورد هذا الأمر في الكتب المقدسة، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل؟ إنه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته في أحد مجامعها، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم.

ولقد خالفت في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية، ووجد من

أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويعتقدون أنها غير ممكنة في العقل ولا سائغة في الفكر.

١١٥ - أما المسألة الثانية فهي مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسئ في الدنيا، فقد قررت الكنيسة حقاً لنفسها في المجمع الثاني عشر أيضاً.

وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشأن: «أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران» فقال: «إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلام منذ الأيام الأولى، قد أعلم المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي، المثبتة بسلطان المجمع».

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس حسب العادة المحفوظة قديماً، والمثبتة في الكنيسة، لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل.

إفراط الكنيسة في استعمال حق الغفران:

هذا قرار المجمع، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار، وهو سلطان مسح الذنوب، وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنست النفس، وأرهقت القلب، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس، حتى لا يؤدي الإفراط في منح الغفران إلى ترك التهذيب الديني، وهجر تعاليم الكنيسة، والعبث بهدى الدين، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط في الإعطاء والمنح؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق، أن أفرطوا في إعطائه إفراطاً شديداً وأنشأوا له صكوكاً تباع وتشتري، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا، ومتعة من متعها، وبذل العصاة في سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص.. مادام ذلك يفتدى بمال قل أو جل، وهذا نص صك الغفران الذي يباع ببيع السلعة.

صورة من صك الغفران:

«ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحك باستحقاقات ألامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها، وأيضا من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفضيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسى الرسولى، وأمحو جميع أقدار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة، وأقرتك فى شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك، حتى أنه فى ساعة الموت يفلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس».

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام، وتغفر ذنوب العاصى ما تقدم منها وما تأخر، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهراً، ثم لا يصير قابلاً لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينعمس فى المعاصى. كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس.

هذا ما يدل عليه الصك، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه فى روع الناس تمكيناً لسلطانها، ورغبة فى نقودهم التى يبذلونها للكنيسة فى سبيل الحصول على ذلك الصك الذى يكون سر الأمان، وطريق الوصول إلى الغاية.

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق فى الغفران، والشخص قوى يستقبل الحياة، ولا يودعها ويقبل على متعها، ولا يدبر عنها، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب، ثم أغرقت فى المغالاة فاتخذها رجال الدين باباً من أبواب الكسب للكنيسة. ثم إنهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق، وما قد يحرمانه، وبذلك طم السيل، حتى جاوز الحزام الطبيين.

سلوك رجال الدين الشخصي :

١١٦- وهل كان رجال الدين فى سلوكهم الشخصى، وفى استمساكهم بعروة الأخلاق، وهدى الدين يستحقون أن يبذل الناس فى طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم، وقبولها بقبول حسن، متهمين العقول إن حاولت التمرد والعصيان، لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظنة، منزهة عن الريبة، قد سمو بأنفسهم، حتى سمو فى العلو القديسين والشهداء والصالحين، وجعلوا أنفسهم عنوان العفة، وبخع النفس عن الشر، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم، أو عرضوا أنفسهم للعداء. كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب، وتأخذهم الأنظار المتعقبة من كل ناحية من نواحي الحياة، حرما على أنفسهم الزواج إذ سادت الرهبانية وسيطرت على نفوسهم، فجعلوا زواجهم حراماً، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب، ويقوموا على سدانتها، ويرعوها حق رعايتها، ولكن ما أن توردت عليهم الأموال، وكثرت أمامهم أسباب النعيم، حتى فكها فيها مترفين، وانغمسوا فى الملاذ يستطيبون أطيبها، ويطلبون أشدها، ولما مكثوا لأنفسهم من السلطان، اندفع بعضهم فى طلبها اندفاعاً، ومنهم من استهتر فى سبيلها استهتاراً، وخرجت حال بعض أولئك المنغمسين فى الخطايا من السر إلى الجهر، ومن التستر إلى التفحش، ومن الخفية إلى الإعلان، واتصل بعضهم بالنساء اتصال سفاح، بعد أن حرما على أنفسهم النكاح؟ ولم تتمتع النساء المتصلات بهم من أن يعلن ذلك مفاخرات به، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لأبائهم، ولكن لهم حظوة، لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم، كما يعرفون أبناءهم، فيمكنون لهم بسلطانهم الدينى سلطاناً دنيوياً.

واقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة العالية الدينية أنفسهم، أما التحوت من رجال الدين فى فقر مدقع، وفى حياة هى أقرب إلى الدين المسيحى من حياة كبرائهم، ونوى السلطان فيهم وفى الشعب.

ابتداء الإصلاح :

١١٧- هذا سلطان الكنيسة، وتلك حال رجالها، يتدخلون فى كل شىء، ينقبون عن القلوب، وقد سترها علام الغيوب، ويرهقون من يتهمونهم بأقسى أنواع العذاب، ويفرضون سلطانهم على الراعى والرعية، حتى يتعلم من تحكمهم الملوك والأمراء، ونوى الفكر من

الشعوب ويجبون الأتاوات ويفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون لرجال الدين المهذبون، ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب في آخر أيامه في الدنيا، وأول أيامه في الآخرة، ثم يغالون، فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوى الصحيح، ويكتبون في ذلك صحوكاً يبيعونها بثمن قليل أو كثير، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو، وحولهم الناس ينظرون.

ولقد بلغ السيل الزبى في العصر المشهور في التاريخ الأوربي بعصر النهضة، وفيه نهضت الإرادة الإنسانية، والعقل الإنسانى يفرضون وجودهما، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا الله في الإسلام، والتدين الحقيقي فيما يدعو إليه هذا الدين، إذا اتصل الشرق بالغرب. فيما قيس الغرب من دراسات يلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص، ومن الشرقيين بشكل عام، وفيه علم أن لا سلطان لأحد من رجال الدين على القلب، وأن لاوساطة بين الله والعبد، وأن الله قريب ممن يدعو، ويجب دعوة الداعى إذا دعاه.

دعوة بعض رجال الدين إلى الإصلاح :

حينئذ أخذت الأنظار المتربصة تحصى على رجال الدين ما يفعلون، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم، وأخذوا يدعون زملاءهم إلى إصلاح حالهم، ليردوهم إلى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت، وقبل أن ينفذ الناس، وقبل أن يحملهم العامة على الإصلاح.

ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس، ولكن كان نصيبهما أن أعدما تحريقاً بالنيران، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذى انعقد من سنة ١٤١٤ إلى سنة ١٤١٨، ولقد قرر ذلك المجمع قتل هذين العالمين حرقاً بالنار، لأنهما دعوا الكنيسة إلى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان فى محو الإثم أو تقريره، وإنما التوبة مع رحمة الله هى التى تمحو الآثام، وتطهر النفس من الخطايا، ولقد تقدم إلى المجمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاتوليك فى ذلك الدفاع.

«لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعليمه، فقر الرأى على إلقاء القبض عليه، وفوض المجمع إلى بعض أعضائه أن يفحصوا مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها، ولكنهم لم يستفيدوا شيئاً، ووجدوا فى مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن أضراباً، وقد خولوه الحرية ليوضح أقواله فى كل منها، وحرصوه على الخضوع لحكم المجمع،

وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله، فأبى أن يمضيها، وبقي مصرأً على غيه، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه إلى المضايقة الأخيرة، بل حاول مراراً أن يرده عن عناده فحكّموا أولاً على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك، لكنه لبث مصرأً على عناده، فحينئذٍ حطوه عن الدرجات المقدسة خطأً احتفالياً، وأسلموه لحكومته فحكمت عليه بالحرق حياً بمقتضى نواميس المملكة ثم نال جيروم تلميذه وقرينه في العناد هذا العقاب نفسه.

أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدني أن يعمل بموجب شرائع المملكة التي كانت تعطى الملك حقاً في أن يعاقب من يفسدون النظام المدني بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور».

هذا ما يقوله الكتاب المدافعون عن الكنيسة، ومهما يكن قولهم في براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين إصلاحاً، فمما لاشك فيه أنها لم تصغ إلى أقوالهم، بل عاقبتهم عليها بالحرمان، فسلبتهم المنصب الديني، ثم عاونت بذلك على قتلهم أفضع قتله، إن لم تكن هي الفاعلة.

ابتداء الإصلاح من غير رجال الدين :

١١٨- كانت إرهابات الإصلاح تبدو الوقت بعد الآخر، ويظهر به رجال استعدوا للفداء زمنأً بعد زمن، وكانت البلاد التي تظهر فيها آراء الإصلاح في شمال أوروبا وإنجلترا، وفرنسا، لأن فرنسا قد ذاق بعض ملوكها أذى الحرمان من الكنيسة. وأحس الفرنسيون بشدتها، وإنجلترا رأّت من سلطان البابا عليها تخلافاً في شئونها، ولأن أمم شمال أوروبا قد اقتترنت حضارتها بالدين فكانت شديدة الغيرة عليه، قوية الرغبة في فهمه على وجهه، جاعلين قبلتهم الكنيسة ورجالها، فعضروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على عيوبهم، فأرادوا أن يصلحوها من غير أن يهدموها، لذلك ظهرت حركات الإصلاح ووجدت أذناً مصغية في تلك البقاع، ولم ينبثق فجر القرن السادس عشر حتى انبثقت معه أصوات قوية جريئة تدعو إلى إصلاح الكنيسة، وتنقذ حالها وتندد بأعمالها، وتنتشر عيوب القوامين عليها، وعساهم يصلحون أمرهم، ويعولون إلى آداب الدين وتهذيبه.

الدعوة الهادئة :

وقد ظهر في فجر القرن السادس في أزمان متقاربة أصوات رجال مصلحين، ومن أشدها ظهوراً صوت أرزم، وقد ظهر بالأراضي المنخفضة، وعاش من سنة ١٤٦٥ إلى سنة ١٥٣٦. وقد أخذ يدعو الناس إلى قراءة الكتاب المقدس عندهم، وإلى تهذيب عقولهم، وتنمية مداركهم، ليستطيعوا فهمه، والانتفاع به، وإدراك مراميهِ وغاياته، وأخذ يدعو إلى إصلاح الكنيسة، وظهر أنه لم يوجه دعوته إلى الشعب، بل وجهها إلى الحكام المستتيرين، وإلى رجال الكنيسة أنفسهم، فقد كان البابا ليو العاشر صديقه، وكان ممن يقدرون آراءه، ويعجبون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره، وقد سار في طريق ذلك الإصلاح السلمي مجتهداً الاجتهاد كله في أن يحافظ على مركز البابا وقداسته، حريصاً على ألا ينال أحد منهما، وألا يخلط دعاة الإصلاح بين إصلاح الكنيسة ومراكز رجالها، وما يستحقون من إجلال وتقديس، فهو يرى أن الإصلاح واجب على أن تقوم به الكنيسة في داخلها، أو يعاونها الحكام على إصلاح نفسها، ولذلك عندما رأى ثورة لوثر العنيفة، وما أدت إليه من مس سلطان الكنيسة ونقص ما لها من قداسة، نبذ آراءه ولم يعاونه.

وظهر كذلك في هذا الإبان تومس مور من ١٤٧٨ إلى ١٥٣٥، وقد ظهر في إنجلترا، ودعا إلى إصلاح الكنيسة أيضاً بالطريق السلمي، ولذلك دعا بنفسه إلى وجوب احترام سيادة البابا، وأن يكون له السلطان الديني على الجميع.

النقد العنيف :

١١٩- ولكن دعوات أولئك السلمية لم تفد فائدتها، ولم تنتج ثمراتها، وإن شئت فقل أن تحول الأفكار وانتقال الفكرة إلى الشعوب، واصطدام الكنيسة بالمفكرين وبعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفاً، وجعل خطوات الدعاة أسرع مما يريد أولئك السلميون.

وأشد من ظهر من أولئك تأثيراً وأقواهم نفوذاً: مارتن لوثر، وزونجلي، وكلفن. ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة.

لوثر :

أما مارتن لوثر، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من أبوين فقيرين، ولكن أباه أجهد نفسه، وأراد أن يصل به إلى أقصى درجات الثقافة، ومكن له ليكون قانونياً، فأرسله إلى الجامعة، ولكنه

عجز عن إتمام دراسته القانونية، وعكف على دراسة اللاهوت، وانصرف إليها لأنه أحس بنزعة دينية قوية تدفعه إلى الانقطاع لذلك، وقد كان شديد التورع، مبالغاً في تقدير سيئاته، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة، حتى لقد قال بنفسه أنه لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة الرب الرحيم، وكان لهذا الإحساس الدينى الدقيق، وذلك النزوع اللاهوتى موضع رعاية رجال الكنيسة، حتى لقد أوصوا به خيراً أولى الأمر من رجال الدنيا، فعين مدرساً للفلسفة، وظل عاكفاً على هذه الدراسة التى كان يشك فى صلاحيتها، إذ كان يدرس فلسفة أرسطو، وما كان فى نظره إلا من عبدة الأوثان، ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة فى ذلك العصر كانت تحت ظل الدين، وفى خدمته، ويقوم بها رجال الدين أنفسهم، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة له عن دراسته الدينية، بل كانت تتيماً لها.

ولقد دفعته نزعة الدينية الخالصة، وإجلاله للكنيسة ورجالها إلى أن يحج إلى روما، ليتيمن بقاء رجال الدين، ولكى تحل عليه بركات روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدسة، ولكنه ما أن وطئت قدماه أرض روما حتى رأى ما صدم حسه، وأزعج نفسه، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة، فوجد مدينة لاهية عابثة، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم المفاصد، وحاطت بهم الريب، وظنت بهم الظنون، وجد جراً على الخطايا، واستهانة بأحكام الدين. ووجد الذين تخيلهم قديسين صالحين، وأنهم ملائكة الله تسير على الأرض، قد انغمسوا فى الرذيلة، ورتعوا فى حماها زاعمين أن سحائب الرضوان قد نزلت عليهم، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض وسر التوبة، وأبواب الغفران، ويغفرون لمن شاءوا ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

رأى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الدينى نو النفس اللوامة، الذى يرى أن خطايا الإنسان أكبر من أن يمحوها هو، وأنه لا سبيل لغفرانها إلا أن تسعها رحمة الله.

لذلك شدّه من هول ما رأى، وتحير بين ما تخيله فى رجال الدين من زهادة، والواقع المستقر الذى صدمه صدمة عنيفة، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى انتقل من الحيرة إلى الاستنكار، لذلك عاد إلى ألمانيا حانقاً مستنكراً بعد أن ذهب راضياً مقدساً.

ولقد أخذ يعلن من ذلك الإبان أن التبرك بالمقدسات، والحج إليها وتكرار الصلاة لايجدى العاصى، ولا يغنيه عن توبة نصوح، وقدم مطهر، ورجاء رحمة الرحيم، وأن أحداً من الخلق مهما تكن قدسيته لا يملك لأحد غفرانا، ولا يستطيع أن يستبر ذنباً قد ارتكب.

١٢٠- كان لوثر بعد عودته مأخوذاً بهذه الأفكار، قد استولت على نفسه، وسوغ له كل هذا أنه قد عرا ثقته برجال الدين ضعف وإن لم يعتزم الثورة عليهم أو على آرائهم، ولكن الحوادث كانت تدفعه إلى أن يعلن استنكار آراء رجال الدين، والجهر بذلك. وذلك لأن البابا ليو أراد أن يعيد بناء كنيسة بطرس في روما، وذلك يحتاج إلى مقدار من المال غير يسير، فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران ببيعها، فذهب الراهب تنزل إلى ألمانيا، ومعه تلك الصكوك التي نقلنا لك نموذجاً منها فيما أسلفنا من القول، وأخذ يعلى من أمرها. وبيالغ في قدسها وسرها.

عندئذ ثار لوثر الذي لا يعرف أن شيئاً يستر الذنب إلا الندم على ما كان، والإقلاع عنه فيما يكون، ورجاء رحمة الدين، والذي رأى في رجال الدين ما رأى، ثار لوثر على تلك الصكوك وكتب في بطلانها احتجاجاً علقه على باب الكنيسة.

والقد كان لذلك أثره في العامة والخاصة، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت أو الإغضاء، فقد أرسلت إليه تدعوه إلى الحضور لمحاكمته أمام محكمة التفتيش التي كانت تدبيراً اتخذته المجمع نريعة للقضاء على مخالفيها.

ثورة لوثر على الكنيسة :

وهناك نجد بعض الأمراء يتدخل، فيوصيه بالآ يجيب طلبها، فلم ير البابا بدأ من أن يصدر قراراً بحرمانه، ويعدده زائفاً، وهنا تأخذ الحمية لوثر، ويشتد في دعوته، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان، حتى أنه ليحرق في وسط وتبرج - والجموع حاشدة - حرمان البابا وقرار زيفه، ولم يبق إلا أن تنفذ السلطة المدنية قرار الحرمان، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية، أثراً لقرار الحرمان الديني، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته، ولكنه طالب البابا بأن يقنعه بخطئه فيما ارتأى، فلم يجب إلى ما طلب، فانفض المجمع من غير نتيجة في هذا، ولكن الإمبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية إلا أن أمير سكسونية حماه.

ومن هذا الوقت أخذت تخضع دعوة لوثر لحكم الأحداث السياسية، فيجد سلماً من الدولة، إذ كان الإمبراطور مشغولاً بحرب، ولا يريد إثارة فتنة. وتجد حرباً إذا خلا الإمبراطور لهم، وفي كلتا الحالتين تزداد الدعوة حدة ويزداد أتباعها عدداً، ويشتد ساعدهم بموالاته أمراء أعزاء في النفرة.

وفى سنة ١٥٢٩ حاول الإمبراطور أن ينفذ قرار الحرمان الصادر سنة ١٥٢١ ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك، ومن ذلك الحين سموا البروتستنت أى المحتجين، ثم جرت الأمور سلماً فحرباً متداولين، حتى إذا مات لوثر، وكان الإمبراطور قد خلص من كل الحروب التى تشغله أنزل بالبروتستنت أقسى العذاب وأشدّه بلاء، ثم يعقب ذلك صلح بين الفريقين.

لوثر لم يرد هدم الكنيسة :

١٢١- لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون إلى هدم الكنيسة، ولا إلى محاربة سلطانها، بوصف كونها مرشدة وواعظة ومبينة للناس شئون دينهم، ولكنه كان يريد إصلاح حال الكنيسة ورجالها، وحملهم على الجادة وإعطاءهم من الحق ما أعطته الكتب المقدسة، ووصايا رسولهم، والمأثور عنهم، وهو لم ينظر إلى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطئ، ولا يأتى الباطل إلى قوله، بل نظر إليه على أنه كبير المرشدين الواعظين.

ولما أراد لهم الإصلاح - وكان يائساً من أن يقوموا هم بذلك - دعا الأمراء إلى أن يتدخلوا، وقرر أن لهم عليهم سلطانا، وأن لهم الحق فى عزل رجل الدين إذا لم يقم بما يأمره به الدين، ووجد أن جزءاً من فساد رجال الدين يرجع إلى عدم الزواج.

ورأى أن المنع منه لم يكن فى المسيحية فى عصورها الأولى، فقرر حقهم فى الزواج، وتزوج هو فعلا مع أنه من رجال الدين. وكان زواجه من راهبة.

ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الإنجيل، وذلك من أسباب غلوها وفقدتها الرقيب، فجعل لكل مسيحي مثقف الحق فى فهمه، واشتغل بترجمته إلى الألمانية ليقراء كل ألماني.

وأنكر أن المسيح يحل فى بدن من يأكل العشاء الربانى. فقد أنكر استحالة الخبز إلى عظام المسيح المكسورة. وأنكر استحالة الخمر إلى دم المسيح، وحلولهما فى جسم الأكل، واكتفى بكون العشاء الربانى تذكيراً لما قام به المسيح من فداء للخليقة فى زعمهم، وأن يعتقد المسيحي أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء.

هذا كله مع إنكاره حق الكنيسة فى الغفران، ذلك الحق الذى كان عود الثقب الذى أشعل ثورة لوثر، وكانت منها تلك النيران التى لم تستطع الكنيسة لها إطفاء.

زونجلى وأعماله :

١٢٢- وفى الوقت الذى كان يفالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من نوى السلطان، كان فى سويسرة صوت قوى آخر ينادى بما يقارب ما نادى به لوثر، ذلك هو زونجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١) فقد ألتته حال الكنيسة ودعا إلى مثل ما دعا إليه لوثر فى مسائل الدين. وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران كما ابتدأ لوثر، وقد مات أثناء صراع وقع بين أنصاره المعتنقين لمبادئه وأنصار الكاثوليك.

وأراؤه فى الجملة تتقارب من آراء لوثر، ولقد كان يرى أن العشاء الربانى مناولة تذكارية لموت المسيح وفدائه لخطيئة الخليقة فى زعمهم، وأن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط. ويفسر ما جاء خاصاً بالعشاء الربانى فى إنجيل متى بمعناه المجازى. وهذا نص ما جاء فى ذلك الإنجيل فى إصحاحه السادس والعشرين: وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك، وكسر، وأعطى للتلاميذ، وقال: «خنوا، كلوا هذا هو جسدى» وأخذ الكأس وشكر، وأعطاهم قائلاً: «اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا».

ودعوة زونجلى هذه، وإن كانت تتلاقى فى مبادئها فى الجملة مع مبادئ لوثر كانت منفصلة عنها، فلم تتوحد الدعوتان، بل كانت كلتاهما تعمل فى محيط إقليمها، بيد أن حركة لوثر كانت أوسع دائرة وأسرع انتشاراً، لسعة الإقليم الذى نشأت فيه، ولرعاية بعض الأمراء لها، بل لاعتنائهم بمبادئها، ولأن الأحوال السياسية فى ألمانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيع والانتشار.

كلفن وأثره فى الإصلاح :

١٢٣- فى الوقت الذى كان فيه هذان الرجلان يعملان ويجاهدان كل بطريقته، فلوثر بطريقته السلمية التى خالطها العنف، وزونجلى بطريقة الصراع والمنازلة، حتى مات فيه.

فى هذا الوقت كان رجل آخر ظهر فى فرنسا وهو كلفن (١٥٥٩ - ١٥٦٤) قد ولد بفرنسا، ونشأ بها، وتثقف ثقافة قانونية، ولكنه مال بعد تخرجه فى القانون إلى الدراسات الدينية، وقد كانت حركة لوثر قد ذاعت وشاعت فى ربوع أوروبا، وما أن أعلن كلفن آراءه

حتى اضطر إلى الفرار بعقيدته إلى جنيف في سويسرا، وهناك ألف وكتب، وأخذ يعمل على نشر مبادئ المذهب البروتستنتي، وينظمها بعد موت لوثر، فتنظيمها على الشكل الأخير يرجع إلى كلفن أكثر مما يرجع إلى أي رجل آخر، وإن كان باذر البذرة سواء، بل إن بنود ذلك المذهب قد كانت أقدم تاريخياً من لوثر نفسه، وقد نوّهنا إلى بعض هذا الكلام في الجامع.

ويرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها، وعلى الحاكم المدني مساعدتها ومعاونتها وحمايتها، وذلك ليكون السلطان الديني غير خاضع لحكم الحكام. وهو يرى أن المسيح لا يحضر لا بشخصه ولا بروحه في العشاء الرباني، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزاً للإيمان. ويقول كما يقرر صاحب كتاب الأصول والفروع في العشاء الرباني: «يشير العشاء الرباني أيضاً إلى مجئ المسيح، كما يشير إلى موته، فيكون تذكيراً للماضي والمستقبل، فالعبرة في العشاء الرباني للذكرى، لا حضور المسيح مادياً أو روحياً».

إنشاء كنائس للمصلحين :

١٢٤- كانت جهود هؤلاء القادة وأتباعهم، وعيوب الكنيسة، وسوء حالها وحال القوامين عليها، وشدة ضغطهم سبباً في ذبوع الآراء التي تخالف رأى الكنيسة، وقد ابتدأت الحركة بطلب إصلاح الكنيسة على أن يقوم بالإصلاح رجال الكنيسة أنفسهم، ولكنهم أنغضوا رءوسهم، وأصرروا واستكبروا استكباراً، ورفضوا كل دعوة للإصلاح، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحياناً كثيرة، والإهمال أحياناً قليلة، فلما استيأس مريدو الإصلاح من أن يقوم الكنسيون بإصلاح حالهم، وأن يرعوا الديانة حق رعايتها فاتجهوا إلى الحكام طالبين أن يتدخلوا لإصلاح الكنيسة، كما حاول لوثر، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها، ولكن الحكام تقاعسوا، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة، بل حاول القضاء على طلاب إصلاحها، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح، كما حدث لبروتستنت فرنسا، وكان ذلك إما تعصباً للكنيسة وإما مجاملة، وإما كراهة للمصلحين، لأن منهم من كانت لهم آراء إصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم في إصلاح الكنيسة، وقد كان الحكم استبدادياً مطلقاً، بلا نظام يقيد الحاكم، ويلزم المحكوم.

فلما ينس طلاب الإصلاح من الحكام وينسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن

يجعلوا لأرائهم جماعة، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة، وأراؤها غير خاضعة للكنيسة. ورافضة كل ما لها من سلطان، وأنشأوا لهم كنائس ليست معترفة لروما بأى سلطان، وسلطة رجال الدين فيها محدودة، ولرجال الدين من الحقوق ما قرروا من مبادئ، وسميت كنائسهم كنائس إنجيلية^(١). أى أنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس، ويقيد بأحكامه رجال الدين أمام رجل الشعب، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب، وليس لرئيس الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدساً، مساوياً لأحكام الكتاب المقدس فى الرتبة والاعتبار.

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك والنرويج وهولندا وإنجلترا وأمريكا الشمالية وسويسرا، وإن لم تصر كلها على المذهب.

أهم مبادئ الإصلاح:

١٢٥- والآن نلخص المبادئ التى أتت بها ذلك المذهب الجديد، ونكتفى بذكر أصولها التى يرجع إليها غيرها من الفروع، وأعظم تلك الأصول شأنًا:

(أ) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحى لنصوص الكتاب المقدس وحدها^(٢) وجعله الحكم وحده الذى لا ترد حكومته، ولا ترفض أوامره، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على ما نص عليه فى ذلك الكتاب، فما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد به، وما خالفه رفض، ولو كان صدر عن أكثر رجال الكنيسة شأنًا فى الماضى أو الحاضر.

(١) وتسمى الكنائس الأخرى التى تجعل لرئيس الكنيسة سلطاناً يعتبر فيه خليفة المسيح الكنسى التقليدية وهى كنيسة الكاثوليك، والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الأرثوذكسية المرقسية، وهى كنيسة القبط وغير ذلك.

(٢) الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة الشرقية وغيرهما من الكنائس التقليدية لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحى، بل يعتبرون معه الرسائل غير المسطورة فى ذلك، وتعاليم المسيح التى نقلت إلى البابوات خلفاً عن سلف مصدرها أيضاً. ويسمون ذلك المصادر التقليدية. ويقول فى ذلك صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الذى ترجمه يوسف البستانى فى ذكر قرارات المجمع الترنديتى: «إن المجمع الترنديتى المقدس الملتزم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسى الرسولى لاعتباره أن حقائق الإيمان ورسول الأب متضمنة فى الصحف المكتوبة وفى التقليدات المكتوبة، وهى المنقولة عن فم يسوع بواسطة الرسل، أو المنزلة على الرسل أنفسهم بالروح القدس، وقد اتصلت إلينا تسليماً اقتفاءً بأثر الآباء الأرثوذكسيين قد قبل جميع أسفار العهدين القديم والجديد، ثم التقليدات أيضاً المتعلقة بالإيمان والآداب بما أنها بارزة من فم يسوع المسيح، أو ملقنة من الروح القدس، ومحفوظة فى الكنيسة بالخلافة المتواصلة ويعتقها بنفس الإكرام والاحترام الذى تعتق به الكتب المقدسة».

وإذ ذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان في ذلك: «إنهم جميعاً متفقون في المعتقدات على مجرد ما في الكتاب المقدس فقط، فلا يخضعون لشيء من التقاليد التي لا يوجد لها فيه رسم أصلاً، ولا إلى أحوال أحد من الآباء أو المجامع إلا إذا كان موافقاً لنصوصه لفظاً ومعنى، أما تفسير الآيات الغامضة والتي لم يوضحها الوحي الإلهي، فلا يمارون أحداً فيها إلا إذا كان التفسير ينافي ما كان معناه واضحاً في غيرها من تعاليم الكتاب».

فهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب، وقد كان تحكيم الكتاب وحده سبباً في جعل رجل الدين غير مطاع إلا فيما ورد في الكتاب.

وقد كان جعل سلطان للكتاب شاملاً لرجل الدين ولرجل الشعب، سبباً في أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصوراً على رجال الدين، فأزيل ذلك الحجاب الذي أقيم بين المسيحي وبين كتابه. إذ أقامه رجال الدين ليحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم. وبذلك يكون الدين ما تنطق به أفواههم وليس لأحد أن يعقب على قولهم، لأن باب التفسير قد أقفل بون غيرهم فلا يستطيعون إزالة رتاجه، ولا فتح إغلاقه، فألفى المذهب الجديد ذلك الحجاب وفتح باب التفسير لكل مثقف ذي فهم، وإذا كان ثمة نص لم يفهم توقفوا عن فهمه، فإن أبدى رجل الدين رأياً في فهمه قبلوه إلا إذا خالف نصاً ظاهراً لا مجال للتويل فيه.

عدم الرياسة في الدين :

(ب) ليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة، بل لكل كنيسة رياسة خاصة بها، والرياسة الكنسية التي تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لا وجود لها عندهم، بل إن الكنيسة في كل مكان ليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد، والقيام على تأدية الفروض والتكاليف الدينية وبيان الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك.

ليس لرجل الدين الغفران :

(ج) وإذا كانت الكنيسة ليس لها سلطان إلا البيان لمن لا يستطيع بياناً والإرشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه، فليس لها سلطان في محو الذنب أو ستره. أو تلقى الاعتراف بالذنوب ومسحها سواء أكانت تلك هي المسحة الأخيرة عند

الاحتضار، أم كانت قبل ذلك. فكل ذلك ليس لها فيه سلطان. لأنه من عمل الديان. وقد علمت أن صكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب الذي اندلعت منه الثورة على الكنيسة، وتبعها تقصى عيوبها، وتتبع نقائصها. وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة، وبيننا أنها غالت فيما زعمته لنفسها في ذلك من حق، والأساس في رفض الكنيسة في هذا: كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وكما أن ذلك الأساس أدى إلى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى إلى أمر آخر وهو منع الصلاة لأجل الموتى، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سيحاسب عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأدى أيضاً إلى أن طلب شفاعاة القديسين لا قيمة له، لأنه لا يغير عمل الشخص من صالح إلى طالح.

وفي الجملة أنهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع إلى عمل الشخص وعفو الإله، وتوبة العاصي وندمه على ما فات ولومه نفسه على ما كان، وكل قول يجعل غفران الذنوب أساسه غير ذلك رفضوه، ولم يلتفتوا إليه.

عدم الصلاة بلغة غير مفهومة :

(د) ولقد كان ذلك المبدأ الذي يجعل الإنسان يدين بعمله وحده، ومبدأ أن لاسلطان للكنيسة على القلب والعبادة، كان هذان المبدأن سبباً في أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد، لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب إليه، والقيام بالخضوع الكامل له، والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء إلى المعبود، فوجب أن تكون بالفاظ يفهمها العابد ليردد معانيها ويقصد مراميها، وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك. لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه.

رأيهم في العشاء الرباني :

(هـ) انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الرباني إلى أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التي ارتكبها آدم، وتحملت الخليقة من بعده وزرها، وتذكار لمجيئه ليدين الناس، فهو تذكار للماضي والمستقبل كما جاء في بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه.

والكنيسة قد أصرت على ذلك إصراراً. وهذا قرارها في المجمع الترنديتي في ذلك الشأن، فهي تقول بلسان أعضائه.. «لقد اعتقدت كنيسة الله دائماً بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقي ودمه الحقيقي مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر، وإن كلا من الشكلين يحتوى ما يحتوى كلاهما، لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت الخبز، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل، كما أنه هو كله أيضاً تحت شكل الخمر وجميع أجزائه، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا. وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه تعالى، وهذا التعبير قد دعاه بكل صواب. فيلتزم إذن جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للإله الحقيقي. لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذى عبدته الملائكة على أمره تعالى. حينما أتى على العالم، وهو نفسه الذى سجدت له المجوس خارين على أقدامه، وله نفسه سجدت الرسل فى الجليل».

هذه عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى، لم يستسغها لوثر وأشياعه، وخلفاؤه من بعده، وانتهى أمرهم إلى أن رفضوا ذلك التحول الذى تفرضه الكنيسة، وتلتزم به، وإن كان بعيداً عن المعروف المألوف، وبعد أن رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الربانى تذكاراً بالفداء وتذكيراً للمجى وفى ذلك عظة واستبصار.

إنكار الرهينة :

(و) أنكر أولئك المصلحون لزوم الرهينة التى يأخذ رجال الدين أنفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة. يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية إن تخطى عنها، ولقد رأوا ما أدى إليه ذلك الحظر من كبت للجسد الإنسانى وتعذيب له من غير ضرورة، ولانص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك، بل لقد رأوا ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان فى رجل الدين، فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال، وطلق يغترف من ورد معتكر بالاثام، مرنق بالمفاسد، وترك المنهل العذب الذى حلتته الشرائع، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنسانى.

عدم اتخاذ الصور والتماثيل :

(ز) منع البروتستنت اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها، معتقدين أن ذلك قد نهى عنه فى التوراة، فقد جاء فى سفر التثنية: «لا تصنع لك تمثالا منحوتاً، ولا

صورة مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك غير أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى، وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبى، وحافظى وصاياى».

ولا شك أن ما نهت عنه التوراة يجب الأخذ به ما دام الجميع يؤمنون بالتوراة، وكتب العهد الجديد، وما دام لم يرد عن المسيح أو عن الرسل ما يبطل ما جاء فى التوراة. ولقد أثبت الأستاذ أمين الخولى بالسند التاريخى أن ذلك التحريم قد قبسه النصارى المصلحون من نور الإسلام.

المسيحيون لم يسيروا فى منطقتهم إلى أقصى مداه :

١٢٦- هذه أعظم المسائل التى خالف بها المصلحون فى المسيحية ما عليه الكنيسة، وهى لا شك خلع لسلطان الكنيسة على النفوس وقضاء على سلطان الجامع وإذا كان للحوادث منطق تسير عليه، فهل لنا أن نستببط منطق تلك الحوادث، وما كان عساه يكشف عنه لو سار فى طريقه إلى أقصى مداه؟ لقد علمت فى سياقنا التاريخى الذى بيناه عن أنوار المسيحية أن ذلك السياق يعلن فى عباراته وفى فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد، حتى جاءت الجامع، فقررت ألوهية غير الله، وطردت من حظيرة المسيحية المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى ألوهية المسيح، وناصرتهم الشعوب المسيحية فى الإبان.

فإذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الدينى من الكتب الصحيحة، وقرروا أن يرفضوا سلطان الجامع والكنيسة معاً، فإن المنطق الذى يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال الجامع القديمة، ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس.

وقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه الجامع، وينظروا إلى سندها وقوتها فإن لم يروا السند قوياً رفضوا ذلك القرار، ولكنهم لم يسيروا فى منطقتهم إلى أقصى مداه، فرفضوا آراء الكنيسة فى أمور، أعظمها شأنها ما بيناه، ولم يتجهوا إلى لب العقيدة، وهو لم يتجاوز أنه قرار مجمع فيدرسوه من جديد على ضوء ما فتحوه لأنفسهم من نور

مبصر، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق في تفسيره، واستخراج الأوامر والنواهي منه دون أن يتخنوا الأحبار والقسيسين وسائط في فهمه، ويحكموا بذلك في ضمائرهم واعتقاداتهم.

عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح :

١٢٧- ولكننا وقد يؤسنا من أن يسير البروتستنت في طريقهم إلى أقصى مداه وجدنا العقول المسيحية قد تنبعت، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ونور الإسلام قد انبج، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا في قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا، وأنه لم يكن أكثر من بشر، قد قبسوا ذلك من الأنجيل نفسها، فهذا رينان قد جهر بذلك في قوة وجرأة ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الإصرار على رأيه والذود عنه، وهذا تولستوى ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح، وتنتهي نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح، بل طمسها، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضاً وإخفاء.

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف، فهو يقول: «إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي، كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الطويلة التي شوهدت وجه التعليم المسيحي، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين، وتعاليم العهد القديم، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للامم، أو رسول الجدل والمنازعات الدينية، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية، كالختان وغيره فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده، ومن عهده ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس، وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فحسر صفته الإلهية الكمالية، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحي التي أولها منذ ابتداء العالم، وأخرها في عصرنا الحالي، والمستمسكة بها جميع الكنائس، وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلهاً دون أن يقيموا على ذلك الحجة، ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار: موسى، والزبور، وأعمال الرسل، ورسائلهم، وتآليف آباء الكنيسة، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله.

هو إذن ينكر ألوهية المسيح، وينكر ألوهية روح القدس، ويعتقد بأن الله واحد أحد فرد صمد، وينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بإلهام، ويعلم في جرأة أنها حرفت وعراها

التغيير والتبديل، فيقول فى صراحة المستمسك بالعروة الوثقى: «إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الإلهى، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء، وأنه قد أوضح فى قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية، كما قالها دون زيادة ولا نقص، وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه، ويتمسك به ويسير بموجب أحكامه، ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصالح، ويسمى المسلمون ديانتهم بالمحمدية، لأن محمداً وضعها بخلاف الكنيسة المسيحية التى تسير الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من روح القدس، فكان الأخرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية».

خاتمة

١٢٨- قد ظهر إذن مسيحيون يدعون إلى التوحيد، وإنك لترى بريق الإسلام يلمع بين السطور التي دونوها والأقوال التي نشروها، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتهم، كما فعلت الجامع من قبل، ولقد كان الأمر لا يسترعى النظر لو كان مقصوراً على العلماء. بل إنك لترى المسيحيين الذين تجادلهم أو تخالطهم بالمودة - أن استثنيت رجال الدين منهم - يصرحون في بهرة المجالس وفي جهر من غير إسرار بأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا المسيح إلا رجلاً عظيماً رسولاً من عند الله، وليس هو الله، ولا ابن الله، وليس ذا صلة بالالوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله.

فهل لنا أن نعتقد أن شيوع هذا على السنة أولئك المثقفين يؤدي إلى إصلاح كامل للعقيدة، يكون شاملاً للأصل، ولا يكون مقتصراً على الفرع كما فعل الإصلاح السابق واقتصر عليه؟.

إن الأجدر لهذا أن يتجه أولئك المثقفون إلى دراسة دينهم، وأن يتجه الذين يحاولون إرشادهم - إلى بيان الأدوار التاريخية التي مرت بدينهم، وإلى ما أحدثته الجامع من أحداث، وكل حدث في الدين هو بدعة فيه، فإن دراسة تلك الأدوار تريحهم الحقائق عارية، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية أو غير كنسية، وقد حاولنا في أثناء بحثنا أن نبين أن ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس فكرتان عرضتا على العقل المسيحي، ولم تكونا في المسيحية الأولى، وذكرنا السند التاريخي في ذلك وأنه لمسيحي خالص، وأنه بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحي إلى التوحيد - إلى العناية بدراسة تاريخ المسيحية وإعلانه لأهلها، ونريد أن ندعو الذين يريدون نشر الإسلام بين ربوع المسيحيين إلى إعلان ذلك التاريخ، فإنهم إن دخلوا في التوحيد، دخلوا في الإسلام بأيسر مجهود، لأن الخطوة التالية لا تحتاج إلى أكثر من الإعلام، والحمد لله رب العالمين.

(تم بحمد الله وتوفيقه)

١١٠- المجمع المسيحية

١١٠- تاريخها - وأسبابها - وقراراتها

١١١- كيف وجدت فكرة جمع المجمع ، ١١١- المجمع العامة والمجمع الخاصة.

١١٢- مجمع نيقية

١١٢- سبب انعقاده العام، الاختلاف بينهم في شخص المسيح، ١١٣- الاختلاف الخاص الذي انعقد المجمع بعده، ١١٣- كلام أريوس، ١١٣- انتشار رأى أريوس وطرق محاربهه، ١١٤- تدخل قسطنطين وجمع نيقيا، ١١٥- موقف قسطنطين من المتناظرين، ١١٥- انحيازه لرأى مؤلهى المسيح مع أنهم ليسوا الكثرة، ١١٦- العقيدة التى فرضها المجمع، ١١٦- قراراته تؤيد رهبة السلطان، ١١٦- النقد الموجه إلى المجمع، ١١٧- الرغبة والرهبه من السلطان لهما دخل فى القرارات، ١١٧- المجمع فرض لنفسه سلطاناً كهنوياً على الناس، ١١٧- أمره بتحريق ما يخالفه، ١١٨- قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر، ١١٩- تلقى المسيحيين لقرارات المجمع، ١١٩- مجمع صور يرفض بالإجماع قرار مجمع نيقية ، ١٢٠- ما يستتبط من هذا ، ١٢٠- نشاط الموحدين.

١٢٢- المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١

١٢٢- سبب انعقاده، ١٢٢- عدد المجمع والظعن فى كونه عاماً، ١٢٢- بطريك الاسكندرية هو الذى يقرر ألوهية روح القدس، ١٢٣- قرار المجمع يوافق رأى بطريك الاسكندرية ، ١٢٣- نظرة فاحصة.

١٢٤- مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١

١٢٤- سبب انعقاده، ١٢٤- النسطوريون ينكرون ألوهية المسيح، ١٢٥- قرار المجمع والاحتجاج عليه، ١٢٥- انتشار النسطورية فى الشرق.

١٢٦- مجمع خليكونية سنة ٤٥١

١٢٦- كنيسة الإسكندرية تعلن أن المسيح إله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت

وصارا طبيعة واحدة، ١٢٦ - طلب انسحاب بطريرك الاسكندرية ورفض الطلب، ١٢٧ -
الشغب فى المجمع، ١٢٧ - قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان، ١٢٧ - الانشقاق ومداه،
١٢٨ - عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع، ١٢٨ - المصريون يرفضون تعيين بطريرك
على غير مذهبهم، ١٢٩ - يعقوب البرادعى ونسبة المذهب المصرى إليه، ١٢٩ - انفصال
الكنيسة المصرية نهائياً.

١٣١- المجمع الباقية

١٣١- المجمع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة، ١٣١ - المجمع القسطنطينى
الثانى وسبب انعقاده، ١٣٢ - المارونية، ١٣٢ - مجمع القسطنطينية الثالث، ١٣٣ - مجمع
تحريم اتخاذ الصور، ١٣٤ - انفصال الكنيسة الشرقية الغربية وسببه، ١٣٥ - الكنيسة
الغربية أم الكنائس، ١٣٦ - المجمع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا فى نظر الكنيسة
الغربية ، ١٣٦- محاولة تقريب بين الكنيستين.

١٣٧- الفرق المسيحية

١٣٨- الفرق التى ظهرت فى عصر التوحيد، ١٣٨ - فرقة أريوس، ١٣٩ -
أصحاب بولس الشمشاطى، ١٤٠ - دخول الوثنية على التوحيد، ١٤٠ - اتباع مرقيون،
١٤١ - البربرانية، ١٤١ - نحل آخر، ١٤١- ضياع التوحيد سببه تحريق الكتب.

١٤٣- الفرق القديمة فى عهد التثليث

١٤٣- فرقة مقدونيوس، ١٤٤ - النسطوريون، ١٤٦ - اليعقوبيون، ١٤٧- المارونية.

١٤٨- الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

١٤٨- أساس انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية، ١٤٩ - تقادم الزمن يوسع
الخلاف، ١٥٠ - محاولة إزالة الخلاف، ١٥٠ - انتقاد مسيحي للكنيسة الغربية، ١٥١ -
بطارقة الكنيسة الشرقية، ١٥١- الإسلام يظل الكنائس الشرقية بالحرية الدينية.

١٥٣- الفرقة الحديثة « البروتستانت »

أو الإصلاح الديني

١٥٣- حالة الكنيسة قبل الإصلاح.

١٥٣- شدة الكنيسة على الناس والعلماء، ١٥٤ - فرض سلطانها على الملوك،
١٥٥ - قرارات الحرمان تنال الملوك، ١٥٥ - استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة، ١٥٦ -
مسائل الاستحالة والغفران، ١٥٧ - إفراط الكنيسة في استعمال حق الغفران، ١٥٨ -
صورة من صك الغفران، ١٥٩ - سلوك رجال الدين الشخصي، ١٥٩ - ابتداء الإصلاح،
١٦٠ - دعوة بعض رجال الدين إلى الإصلاح، ١٦١ - ابتداء الإصلاح من غير رجال
الدين، ١٦٢ - الدعوة الهادئة، ١٦٢ - النقد العنيف، ١٦٢ - لوثر، ١٦٤ - ثورة لوثر على
الكنيسة، ١٦٥ - لوثر لم يرد هدم الكنيسة، ١٦٦ - زونجلي وأعماله، ١٦٦ - كلفن وأثره
في الإصلاح، ١٦٧ - إنشاء كنائس للمصلحين، ١٦٨ - أهم مبادئ الإصلاح، ١٦٩ - عدم
الرياسة في الدين، ١٦٩ - ليس لرجل الدين الغفران، ١٧٠ - عدم الصلاة بلغة غير
مفهومة، ١٧٠ - رأيهم في العشاء الرباني، ١٧١ - إنكار الرهبنة، ١٧١ - عدم اتخاذ
الصور والتماثيل ، ١٧٢ - المسيحيون لم يسيروا في منطلقهم إلى أقصى مداه.

١٧٣- عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح.

١٧٥- خاتمة.

١٧٧- ما يشتمل عليه الكتاب.